

دوستويفسكي

البطل الصّغير

ترجمة: د. سامي الدروبي

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

البطل الصغير

دوستويفسكي

كتب دوستويفسكي هذه القصة سنة 1848، بينما كان معتقلاً في قلعة بتروبافلوفسكايا بسان بطرسبرج، ونشرت في مجلة «حوليات الوطن» في شهر آب (أغسطس) 1857 باسم مستعار هو: م.ي.

تقديم.. بقلم الدكتور سامي الدروبي..

أثناء الأشهر الثمانية التي قضاها دوستويفسكي في سجن منفرد بقلعة بتروبافلوفسكايا، لم ينقطع عن التفكير في تأليف قصص جديدة. وها هو ذا يكتب إلى أخيه ميشيل، في 18 تموز (يوليو) 1849 قائلاً: «إنني لا أضيع وقتي: فلقد تخيلت ثلاث قصص وروايتين، وأنا عاكف الآن على كتابة إحداها. ولكنني أخشى الإسراف في العمل. ذلك أن العمل، لا سيما إذا قمت به في حماسة ونشاط (وأنا لم أعمل يوماً كما أعمل الآن) يهدم صحتي دائما بتأثيره في أعصابي». والحق أن دوستويفسكي لم ينجز أثناء تلك المدة إلا قصة «البطل الصغير»، أما الأعمال الأخرى التي تخيَّلها ووعد بها، ولعله لم يزد على أن شرع فيها، فلا نعرف عن مصيرها شيئاً.

وبعد ذلك بزمن طويل قال دوستويفسكي للأستاذ فسيفواود سولوفييف، المختص باللغات الرومانية: «حين وجدتني في السجن قدَّرت أن هذه هي النهاية، وأنني لن أستطيع الاحتمال أكثر من ثلاثة أيام، ولكنني لم ألبث أن هدأت هدوءاً تاماً على حين فجأة. فماذا فعلت؟ كتبت قصة «البطل الصغير». اقرأ هذه القصة! هل تجد فيها شيئاً من غضب أو حنق أو ألم؟ وكنت وأنا في سجني أحلم أحلاماً هادئة طيبة حلوة عذبة، وكلما طال بقائي في السجن، ازداد حالي تحسناً». إن هذا التناقض بين الزنزانة الرطبة مع الانتظار الطويل لصدور الحكم وبين الأحلام الهادئة والذكريات المضيئة المشرقة لهو ظاهرة نفسية نادرة. وقد علل دوستويفسكي هذه الظاهرة في تلك الرسالة نفسها قائلاً: «إن في طبيعة الإنسان حيوية مدهشة! حقا ما كان لي أن أصدق أن الإنسان يملك مثل هذه الحيوية ولكنني أعرف الآن ذلك بالتجربة».

إن هذه الحالة النفسية التي أنتجت هذه القصة الأخاذة التي تذكّر بمثاليته الهادئة في قصة «الليالي البيضاء»، ولكنها تنقلنا من الجو الخيالي، جو الضياء المظلم الذي تعرفه العاصمة في لياليها البيضاء، تنقلنا من هذا الجو إلى جو البرية الغارقة في الشمس، إلى جو الطبيعة التي أحبها دوستويفسكي حباً كبيراً، ولكنه لم يصفها إلا نادراً. إن دوستويفسكي يصوّر في هذه الرواية حياة لاهية مرحة في أطيان غنية قرب موسكو، «حياة تشبه أن تكون عيداً لن ينتهي في يوم من الأيام»، حياة تتعاقب فيها المباهج فمن رحلات على صهوات الجياد، إلى نزهات في الغابات إلى رقص، إلى موسيقى، إلى غناء، إلى تمثيل... وفي هذه القصة نقع على موضوع من الموضوعات المألوفة التي يعالجها دوستويفسكي: يقظة العواطف في نفس طفل لما يتجاوز الحادية عشرة من عمره، يقظة الحب بالغريزة على غير شعور في قلب ملتهب. إن هذا الموضوع يربط بين «البطل الصغير» وبين «نيتوتشكا نزفانوفنا»، ولكن البطل الصغير أملأ بالحياة وأفيض بالحركة وأحفل بالنشاط وبروح المغامرة من نيتوتشكا الخجول التي عانت مذلّة الحياة منذ نعومة أظفارها. وإلى جانب البطل الصغير نرى شخصيتي امرأتين تقابلان كاتيا بنت الأمير في قصة نيتوتشكا

نزفانوفنا وألكسندرين ميخائيلوفنا في تلك القصة نفسها. هاتان المرأتان هما الشقراء الجميلة والسيدة م... أما الأولى فهي نشيطة، خفيفة كالنار، تضطهد الصبي وتسومه سوء العذاب، وتدَّعي أنها مولهة بحبه، وما تنفَك تلاحقه بشيطناتها... حتى إذا برهن على شجاعة تشبه أن تكون تهوًّرا، وذلك حين ركب مهراً جامحاً لا سبيل إلى ترويضه، أدركت ما في عاطفته من جد، وأصبحت صديقته الرقيقة الوفية، وأما الثانية فهي التي من أجلها إنما قام الصبي بمغامرته المتهورة، فالصبي إنما يحب السيدة م... وقد راح يضع نفسه في خدمتها فارساً مفتون اللب بسيدته على نحو ما تروي حكايات القرون الوسطى، مستعداً لأن يخاطر بحياته في سبيل معبودته التي لا سبيل إليها... إن الصبي يحب السيدة م... وحبه إنما هو مزيج من إعجاب وشفقة معاً. وإذا كانت الشقراء الجميلة تشبه كاتيا (في قصة «نيتوتشكا نزفانوفا»)، كاتيا التي تحب تعذيب المحبوب، فإن السيدة م... تشبه ألكسندرين ميخائيلوفنا. إنها تبدو هي أيضاً سعيدة مع زوجها الرصين المتكبر، ولكنها تحمل هي أيضاً حزناً خبيئاً. إن نظرتها خجلة، وجلة، قلقة: «كان هذا الخجل الغريب يضفي على قسماتها الناعمة، العذبة، الرقيقة التي تشبه قسمات مادونا إيطالية تعبيراً يبلغ من الحزن أنك تشعر بالحزن يغزو نفسك متى رأيتها». والفتى مفتون بها بل مسحور. إنه يريد أن يخدم هذه الإنسانة الحزينة وأن يخفِّف عنها وأن يواسيها. وقد أصبح وصيفها. وهو يشعر نحو زوجها السيد م... بعداوة شديدة واضحة، لأنه يدرك بحدسه أن هذا الرجل ليس طيب النفس، وأنه غيور، وأنه ربما كان قاسي القلب.

وبعد حادثة امتطائه صهوة المهر الجموح على ذلك النحو البطولي الذي جعل له شهرة كشهرة أبطال شيللر، وفرسان دولورج، وتوجنبرج، يعثر الصبي مصادفة على رسالة يشعر بأنها تضم بين ثناياها سِرّ المرأة الشقية فى حبها الدفين العاثر الحظ. فكذلك عثرت نيتوتشكا أيضاً بالمصادقة على رسالة مرسَلة إلى صاحبتها، ولكن الفرق بين القصتين أن الفتاة الطلعة قد قرأت الرسالة وأعادت قراءتها بل ونسختها، أما البطل الصغير فإنه يحاول أن يرد الرسالة إلى سيدته مختومة غير مفضوضة، لا يريد أن يكشف عن سرها، وكان قد شهد خفية، مشهد الوداع بين السيدة م... وحبيبها.

ما أروع وصف دوستويفسكي لهذه العواطف التي تضطرم في قلب فتى ملتهب! إن الأسطر الأخيرة من هذه القصة التي كتبها دوستويفسكي قبل سفره إلى المعتقل بسيبيريا لهي من أصفى ما خطه قلمه من أحلام رومانسية. إنها وداع للشباب قبيل الآلام التي ستكشف له عن قوة الشر في أعماق النفس الإنسانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



في ذلك العهد، كنت في نحو الحادية عشرة من عمري. أُذن لي أن أسافر لإقامة قصيرة في الريف في شهر تموز (يوليو) عند أحد الأقرباء في قرية يملكها. كان قد اجتمع في القرية خمسون مدعواً من المدعوين. الجو مرحٌ صاخب، وكأن الإحتفال لا يريد أن ينتهي أبداً. وكأن المضيف كان قد آلى على نفسه أن يبدّد بأقصى سرعة ثروته الواسعة، وقد نجح أخيراً في البرّ بيمينه، فبدد أمواله حتى آخر قرش. إن موسكو قريبة، وهؤلاء زوار جدد يصلون في كل لحظة، فالذاهبون يحلّ محلهم القادمون، والاحتفال لا ينفكّ يَعظم. المتع تتلاحق، والألعاب لا تنتهي، فتارة هي جولات على صهوات الخيل في البرية، وتارة هي رحلات إلى الغابات وإلى النهر، أو هي نزهات، أو مآدب غداء في الحقول، أو ولائم عشاء على الشرفة الواسعة من المنزل الإقطاعي العريق، وهي شرفة تحفّ بها ثلاثة صفوف من نوادر الأزهار تعطّر بشذاها طراوة الليل. والإضاءة الساطعة المتلألئة تسكب على سيداتنا الجميلات مزيداً من السحر والفتنة، فوجوههنّ منتعشة، وأعينهنّ ملتمعة، وأحاديثهنّ مرحة، وضحكاتهنّ رنانة كصوت أجراس صغيرة. وثمة موسيقى ورقص وأغانٍ، فإذا تلبّدت السماء بالغيوم، أخذوا يلعبون ألعاباً شتى، فمن لوحات حيّة، إلى إلقاء الأحاجي، إلى تبادل الأمثال. وقد شكّلوا فرقة مسرحية، فكان عدة مدعوين يمثلون الدور الأول في المسرحيات. وطبيعي أن النمائم والأقاويل كانت تجري في مجراها. فلولاها لقلّت البهجة في هذا المجتمع، ولتعطّل انطلاقه، ولماتَ من الضجر ألوف الأشخاص، ولكنني وأنا في الحادية عشرة من عمري، لم أكن أدرك ذلك، لأن ذهني كان ينصرف إلى غير هذا. وإنما أتيح لي في ما بعد أن أتذكّر بعض الأمور. كان المظهر المتلالئ للوحة يستطيع وحده أن يخطف بصري، بصر الطفل، وكانت هذه الحركة الحيّة الشاملة، وهذا اللآلاء، وهذا الصخب الجديدان اللذان لا عهد لي بهما من قبل، كان كل ذلك يبلغ من إدهاشي وإذهالي في الأيام الأولى أنني كنت مصعوقاً، مبهوتاً، حتى لكأنّ رأسي مقلوب.

أعود فأقول إنني كنت في الحادية عشرة من عمري. ولا شك أني لم أكن إلا طفلاً، لم أكن أكثر من طفل. وكانت هاته السيدات الجميلات لا يخطر ببالهنّ أن يسألن عن سنّي وهن يداعبنني ويلاعبنني. ولكن الأمر الغريب أنني منذ تلك السن كانت تجتاحني عاطفة لا تعليل لها في نظري. كان شيء مجهول لا عهد لي بمثله يمسّ قلبي ويحرقه، ويحمله على الخفقان خوفاً، ويلهب خدّيَّ بحمرة مباغتة. وكان يُحرجني، بل يهدّني هدًّا ما كنت أتمتع به من ميزات يتمتّع بها الأطفال. وكنت في بعض الأحيان أعتزل المجتمع بتأثير حزن مبرح يتملكني على حين فجأة، محاولاً بذلك أن أستردَّ أنفاسي وأن أتذكر شيئاً لا أدري ما هو، شيئاً أكون قد ظننت أنني فهمته ثم إذا بي أنساه فجأة، ولكنه لا غنى عنه لحياتي ووجودي.

وكنت أحس بأنني أخفي شيئاً لا أستطيع أن أكاشف به أحداً، لأنني أشعر منه بالخجل والعار إلى حد ذرف الدموع. ولم ألبث أن شعرت بعزلتي ووحدتي وسط هذا الإعصار الذي يحيط بي. وكان ثمة أطفال آخرون، ولكنهم جميعاً أصغر مني كثيراً، أو أكبر مني كثيراً؛ على أني لم أكن أحفل بذلك كثيراً. وطبيعي أنه لم يقع لي شيء في هذا الظرف الذي كنت أتمتع فيه بميزات خاصة. كنت في نظر جميع هاته

السيدات طفلاً يحببن أن يلامسنه، ملاعبات كما تلامس عروس من عرائس الأطفال، وكانت واحدة منهنّ خاصة، وهي شقراء لذيذة ذات شعر رائع لم أرَ له نظيراً منذ ذلك الحين، يبدو أنها آلت على نفسها أن لا تدعني وشأني مطمئنّ البال. كان واضحاً أن الضحكات التي كانت تثيرها حولنا تصرفاتها الغريبة التي تشبه تصرفات تلميذة في المدرسة تحدث لها أكبر متعة. وكان هذا يبعث في نفسي الحيرة والاضطراب. كانت جميلة جمالاً رائعاً، باهراً. ولم تكن تشبه في شيء تلك الشقراوات الصغيرات اللواتي يتّصفن بالحياء والخفر والرهافة، كبيضاوات الفئران، أو كبنات الرعاة. إنها أميَلُ قليلاً إلى الامتلاء، وليست بالطويلة كثيراً، ولكن قسمات وجهها الدقيقة كانت أخّاذة، فاتنة. إن في هذا الوجه لسطوعاً يخطف البصر، حتى لكأنها كلها لهبٌ سريعٌ خفيف. فعيناها الواسعتان تومضان كالبرق وتلتمعان إلتماع الألماس. اللهم إني لا أبادل هاتين العينين الزرقاوين بعينين سوداوين من عيون حسناوات الأندلس! إن شقرائي هذه لتساوي حقًّا تلك السمراء الجميلة الشهيرة التي تغنّى بها في شعر رائع شاعر كبير أقسم أنه مستعد أن يموت إذا سُمح له أن يلمس بطرف أصابعه خمار حسنائه. أضف إلى ذلك أن حسنائي أنا كانت بين حسناوات العالم بأسره أشدهنّ مرحاً وأكثرهنّ ضحكاً رغم انقضاء خمس سنين على زواجها. كانت البسمة لا تبارح شفتيها النضرتَين، كأنها كم من أكمام الورد الأرجوانيّ العطر التي لم تكد تتفتح عند أول شعاع سقط عليها من أشعة الشمس والتي لا تزال تخضلها أنداء الصباح. أتذكّر أنهم أقاموا حفلة تمثيلية غداة وصولي. كانت القاعة ملأى. ولم يكن هناك مكان واحد خالٍ. فاضطررت أن ألبث واقفاً، لأنني جئت متأخِّرا. وإذ أغرتني التمثيلية المسلية، فقد تقدّمت متسللاً إلى الصفوف الأولى، إلى أن تجمدت في مكان مستنداً إلى مقعد كانت تشغله إحدى السيدات. إنها شقرائي التي لم أكن قد عرفتها بعد. وها هو ذا بصري يتلبث مصادفة على كتفَيْها المدوَّرين الرائعين، الفاتنين، البضّين كأنهما رغوة الزبد. والحق أن هذا المنظر لم يهزّني أكثر مما هزَّني منظر قبعة ذات أشرطة حمراء كانت تغطي الشعر الأبيض من رأس سيدة محترمة جالسة في الصف الأول. وإلى جانب الشقراء كانت تجلس آنسة مسنّة، هي في ما لاحظته بعد ذلك واحدة من تلك العوانس تساير ركب النساء الشابات الجميلات اللواتي يحيط بهنّ الشبان. فلما لاحظت هذه العانس نظرتي، مالت على أذن جارتها ودمدمت لها ببضع كلمات ضاحكة، فإلتفتت الشقراء، فإذا بشعلة من نار ترميني بها عيناها في هذا الجو الذي يشبه الظلام، وإذا أنا أنتفض من الدهشة مذعوراً كمن أصابه حرق. ابتسمت الحسناء، وسألتني وهي تلقي علي نظرة ماكرة:

- هل يعجبك التمثيل؟

- نعم.

بذلك أجبتها وأنا أتفرّس فيها مبهوتاً. ولاح عليها أن ذلك سرّها.

قالت:

- ولكن لماذا تبقى واقفاً؟ لسوف يتعبك الوقوف. أليس لك مكان؟

- كلا... فالمقاعد كلها مشغولة.

قلت لها ذلك وأنا أهتم بنفسي في هذه المرة أكثر من اهتمامي بعينيها الساطعتين. وقد أفرحني حقاً أن أجد آخر الأمر قلباً طيباً يُذهب عني الملل.

- تعال إلى هنا واجلس على ركبتَيَّ.

قالت ذلك بسرعة. وكان واضحاً أنها تخضع لأية فكرة مجنونة تنبجس في رأسها الطائش. فقلت متحيِّرا، ذاهل اللب:

- على ركبتيك؟ ...

سبق أن ذكرت للقارئ أن الامتيازات التي كنت أتمتع بها قد أخذت تهينني، وأخذت توقظ في نفسي وساوس. وأضيف الآن إلى ذلك أن هذا الامتياز الجديد الصادر عنها استخفافاً واستهزاءً، قد تجاوز جميع الحدود. ثم إنني وأنا الصبيّ الخجول الكثير الحياء قد أصبحت الآن شديد الخشية من النساء. لذلك بلغ اضطرابي أقصاه.

- نعم على ركبتيَّ. لم لا؟

كذلك ألحَّت تقول، وهي تنفجر ضاحكة مقهقهة، لا يدري إلا الله لماذا! لعلها قد سَرَّها اكتشافها، كما سرَّها اضطرابي الشديد الذي حاولت أن تثيره.

احمرَّ وجهي وأنا أجيل طرفي محاولاً أن أهرب. ولكنها سبقتني. فأمسكت يدي لتمنعني من الهروب، وجذبتني إليها، وأخذت تشد على يدي بأصابعها الصغيرة الفارهة التي لا ترحم. فكدت أصرخ من الألم. ولكنني كظمت صرختي مصعِّراً وجهي تصعيرات لا شك أنها كانت مضحكة كثيراً. وقد أحزنني كل الحزن، بل أرهبني أن أرى سيدة تبلغ من الغرابة والخبث ما يجعلها تقول أقوالاً حمقاء للصبية الصغار، وتقرصهم على مرأى من الناس دون أي داع إلى ذلك. ولا شكّ أن هيئتي قد عبَّرت عن فرط حيرتي واضطرابي. ذلك أن هذه الشيطانة كانت تضحك أمام أنفي مقهقهة، وقد هزَّها فرحٌ شديد لنجاحها في إدخال الاضطراب والارتباك إلى قلب صبيّ مسكين. أصبحت في حالة يرثى لها من الكرب واليأس. ذلك أن جميع الناس قد إلتفتوا إلينا ضاحكين، فكنت أحترق شعوراً بالخجل والعار. وكانت تستبسل في عقف أصابعي لتحملني على الصراخ، ولكنني لحرصي على تفادي جرصة لا مخرج لي منها، كنت قد قرّرت أن أتحمل الألم كإسبارطيّ. واشتدت بي الحميا في آخر الأمر حتى بلغت أقصى حدودها، فأخذت أجاهد محاولاً سحب يدي، ولكن خصمي كان أقوى مني، فلما أصبحت لا أطيق أن أحتمل الألم مزيداً من الاحتمال صرخت، وكانت هي لا تنتظر إلا هذا، فلم تلبث أن تركت يدي وتحولت عني كأن شيئاً لم يكن، مثلها كمثل التلميذ الذي كان يلطم بقدمه رفيقاً له أضعف منه من وراء ظهر المعلم، فما إن هرع المعلم نحو مصدر الضجة كالعقاب حتى تحوّل المعتدي عن ضحيته ساخراً، واصطنع هيئة من لم يفعل شيئاً، وعاد إلى كتابه مستغرقاً فيه.

ومن حسن الحظ أن انتباه الجمهور كان مشدوداً في تلك اللحظة إلى صاحب الدار الذي كان يمثِّل الدور الرئيسي في مسرحية هزلية من تأليف سكريب. وكان

الجمهور يصفق للممثل، فانتهزت أنا هذه الفرصة وتسللت إلى خارج الصف، واعتصمت وراء عمود في الطرف الآخر من القاعة، أرمي الحسناء الماكرة بنظرات مروّعة. كانت لا تزال تضحك مغطيةً فمها بمنديلها، باحثة عني بنظرها. لا شك أنها كانت نادمة على أن معركتنا المفاجئة المجنونة قد انتهت بسرعة، ولا شك أنها أخذت تفكّر منذ ذلك الحين بأمازيح جديدة.

هكذا تعارفنا. وأصبحت منذ ذلك المساء لا تدَعني وشأني لحظة، بل تظل تلاحقني وتعذّبني. وكانت أمازيحها تقوم على محاولة إحراجي وإدخال الاضطراب في نفسي بإعلان شغفها بي وجنونها تولّها بحبي. وكنت أنا صبياً متوحشاً حقاً، فكان يؤلمني ذلك أشد الإيلام، ويدفعني إلى البكاء. حتى لقد أوشكت مراراً أن أتماسك بالأيدي مع صاحبتي القاسية، المعجبة بي، الهائمة بغرامي. ويبدو أن اضطرابي كان يشجعها على الإمعان في مناكدتي، لا تأخذها بي رحمة؛ وكنت لا أعرف كيف أهرب منها. وكانت الضحكات التي تثيرها حولنا تشحذ قريحتها فهي لا تنفك تبتكر المزيد من أنواع الجنون. على أن الناس أخذوا يلاحظون أن أمازيحها قد أصبحت مسرفة. والواقع أن في إمكان المرء أن يقول إنها كانت تسمح لنفسها بالإفراط في هذه الأمازيح مع صبيٍّ مثلي.

غير أن طبعها كان كذلك. لقد خلق منها زوجها طفلة مدلّلة حقاً. كان زوجها هذا رجلا قصيراً، شديد السمنة، شديد الحمرة، غنياً كثير الأعمال، دائم الحركة لا يطيق أن يستقِرَّ في مكان، فهو يذهب إلى موسكو كل يوم لأعمال، وربما ذهب في اليوم الواحد مرتين. إنه ليصعب على المرء أن يجد وجهاً كوجه هذا الرجل بشاشةً جذلى، وطيبة مضحكة، على شرف واستقامة دائماً. وكان حبّه لامرأته يجعله من الضعف بحيث يشفق عليه المرء حين يراه. كان يحبّها حب العابد معبوده.

وكان لا يضايقها في شيء. إن لها طائفة من الأصدقاء والصواحب. إذ إن الذين لا يحبونها قلّة. فلم يكن طيشها يدفعها إلى التشدّد في اختيار صداقاتها، رغم أنها في حقيقة الأمر أكثر استقامة ورصانة مما قد يتراءى للمرء بعد الذي ذكرته عنها. وكان بين صاحباتها امرأة شابة كانت تؤثرها حسناؤنا بالحب على غيرها، وهي تمت إليها بقربى بعيدة. وكانت هذه المرأة الشابة موجودة معنا أيضاً. إن رابطةً مرهفة رقيقة العاطفة كانت تجمع بين هاتين المرأتين، رابطةً يجدها المرء أحياناً بين طبعَيْن متعارضَين تعارضاً واضحاً؛ أحدهما أقل صرامة ونقاءً من الآخر، فهو يخضع للثاني خضوعاً ذليلاً، ويعترف بتفوّقه عليه ويمتلئ قلبه صداقةً له. فمن جهة أولى ترى عاطفة رحبة الصدر، متسامحة إلى أبعد الحدود، ومن جهة أخرى نرى عاطفة يمازجها احترام يمضي إلى حد الخوف من فقدان الاعتبار في نظر الشخص الذي يحظى بالإعجاب. كما تمازجها رغبة قوية في النفاذ، مزيجاً من النفاذ إلى الصميم في قلب هذا الشخص. والصديقتان في عمر واحد. ولكن جمال الأولى يختلف عن جمال الثانية كل الاختلاف. إن في جمال السيدة م... شيئاً خاصاً يميزها عن جمهرة حِسان النساء. إن قسَمات وجهها تجذب إليها القلوب جذباً لا سبيل إلى مقاومته، وتوقظ في نفس كل إنسان نوعاً من الاهتمام بها والاحترام لها. إن هناك وجوهاً وهبت لها الطبيعة هذه النعمة: يحس المرء حين يجالسها بأنه قد ارتفع على

ذاته، فهي توقظ في النفس شعوراً بالحرية والعذوبة. ومع ذلك فإن عينيها الواسعتين الممتلئتين ناراً وقوة حزينتان، وإن نظرتها نظرة خجلى قلقة، حتى لكأنها في خوف دائم من وقوع خطر، أو نزول مصيبة. إن هذا الخوف الغريب يسكب على وجهها الهادئ هدوء عذراء إيطالية، ويضفي عليه أسَى وكآبة يبلغان من القوة أن الحزن يتسرّب إلى نفس من ينظر إليها ويتأمّلها.

إن الجمال الكامل الطاهر في هذا الوجه الشاحب الناحل، يوحي بصورة الطفولة التي لا تزال قريبة جداً، يوحي بها واضحة كل الوضوح، كما يوحي بطمأنينة هادئة وثقة كبيرة وربما بسعادة بريئة. وإن بسمَتها المتردّدة تجذبك إليها جذباً رفيقاً، وتدافع عنها، وترفع قدرها ولو رأيتها من بُعد. ولكن هذه الفتاة الفاتنة كانت تبدو صَموتاً مغلقة، رغم أن من المستحيل على المرء أن يجد إنساناً أكثر منها تجاوباً مع آلام الآخرين وأكثر منها انتباهاً إلى عذاب الناس. إن في هذا العالم نساء يعشنَ حياة راهبات من راهبات المحبة والإحسان، فمن كان يتألّم استطاع أن يقبل عليهن جريئاً بغير تردّد، فائض القلب أبداً، لا يخفي عنهنّ شيئاً ولا يخشى أن يضقن ذرعاً بإقباله عليهنّ. وقلما يعرف الناس كنوز الحب الصابر، والشفقة والغفران التي تنطوي عليها قلوب أمثال هاته النسوة الطاهرة، النقية، الجريحة، هي نفسها في كثير من الأحيان، لأنها كلما أمعنت حباً أمعنت ألماً، على إخفائها عذابها عن عيون الناس. إن الألم العميق يصمت ويتخفّى. وإن أمثال هذه المخلوقات لا تأذن لنفسها أن تشمئزّ، أو أن تنفر من الشر مهما يكن بشعاً، ومهما يبلغ من العفونة. إن من يقاربهنّ يجد لديهن عوناً وسنَداً وكأنهن على كل حال إنما خُلقن للحب البطولي.

كانت السيدة م... فارعة القامة مرنة الجسم ممشوقة القَدّ. وكانت حركاتها بطيئة متّسقة، بل فخمة تارة، ومنطلقة حية عنيفة كحركات الأطفال تارة أخرى، على كونها متواضعة خجلى، حتى لكأنها عزلاء، دون أن يبدو مع ذلك أنها تطلب حماية أو تسأل نجدة.

سبق أن قلت إن المناكدات الظالمة التي كانت تعاملني بها الشقراء الماكرة، توقعني في كثير من الضيق والحرج والانزعاج، وتجرحني أعمق الجرح. وكان لهذا سبب آخر، سبب خفيّ غريب كنت أحرص على كتمانه حرص البخيل على ماله، سبب كان مجرَّد التفكير فيه يجعلني ألهث قلقاً وخوفاً في ركن قاتم، لا تتسلل إليه النظرة الفاحصة أو الساخرة التي تلاحقني بها امرأة وغدة زرقاء العينين، حين أخلو إلى نفسي مضطرب الرأس، قلق البال. لقد كنت عاشقاً! لكم أن تقولوا إن هذا مستحيل ولكنني أسألكم لماذا إذاً كان هناك وجه وحيد بين جميع الوجوه التي تحيط بي يلفت انتباهي، ولماذا كنت وأنا الصبي الذي لا يسعى كثيراً إلى صحبة النساء، أتابع ذلك الوجه ببصري دون انقطاع، أتابعه وحده دون سواه؟ ولقد كان يحدث في المساء خاصة، حين تحبسنا رداءة الجو في غرفنا، فأعتصم عاطلاً في ركن من القاعة، وإذ لم يكن أحد باستثناء مضطهدتي يكلّمني إلا نادراً، فلقد كنت أشعر بضجر رهيب. كنت أثناء ذلك أدرس الوجوه وأصغي إلى الأحاديث التي لم أكن أفهم منها كلمة واحدة في كثير من الأحيان، ففي تلك اللحظات كانت النظرات العذبة والابتسامة الحلوة والجمال الفتّان في السيدة م... (فهي التي عشقتها!) تسحر انتباهي

المفتون لا يدري إلا الله لماذا، وتحدث في نفسي أثراً غريباً لذيذاً لا يُمحى... كنت لا أستطيع أن أحوِّل نظري عنها ساعات برمتها، فعرفت جميع حركاتها وسكناتها، وجميع اهتزازات صوتها الفضّي، المحجَّب قليلاً مع ذلك! والشيء الغريب أن هذه الملاحظات كانت تبعث في نفسي قدراً غريباً من حب الاستطلاع، فكأنني أمضي وراء سر أحاول اكتشافه.

وكانت السخريات تؤلمني أكثر ما يكون الألم، وتهينني أشد ما تكون الإهانة إذا شهِدَتها السيدة م... فإذا اتفق أن انطلقت قهقهات الجمع ضاحكة مني فشاركت فيها السيدة م... على غير إرادة منها، هربت من عدوَّتي الظالمة المستبدة وأنا في ذروة الكرب والكمَد، ومضيت أقضي بقية السهرة معتزلاً، منفرداً، متوحِّشا لا أجرؤ أن أعود إلى الظهور في القاعة. على أنني كنت لا أفهم أنا نفسي بعد شيئاً من هذا الخجل، والانفعال الذي أعانيه. فقد كانت هذه العواطف جميعها تجري تحت سطح الشعور من نفسي؛ ولم أكن بعد قد تخاطبت بكلمتين مع السيدة م... وذلك من قلة جرأتي. ولكن، في ذات مساء، بعد نهار كان ثقيل الوطأة على نفسي، تخلّفت عن الموكب أثناء النزهة، ثم تسلّلت أسير في الحديقة، وقد أخذ التعب مني كل مأخذ، وفيما كنت أمشي في طريق معزول تحف به الأشجار، لمحت السيدة م... جالسةً على مقعد. كان رأسها مائلاً على صدرها وتشدُ منديلها بحركات آلية على غير شعور منها، وكانت غارقة في تأملاتها فلم تسمع وقع خطواتي.

فلما لمحتني، نهضت عن المقعد بسرعة قوية، وحولت وجهها؛ فرأيت أنها كانت تبكي. ثم ابتسمت لي بعد أن جفَّفت دموعها، وسرنا معاً نحو البيت. لا أتذكر الموضوع الذي دار عليه حديثنا، ولكنني أعلم أنها كانت ترسلني مرة بعد مرّة، متعلّلة بألف حجة وحجة، فهي تارة تسألني أن أقطف لها وردة، وتارة تطلب مني أن أمضي لأرى من ذا الذي يعدو على صهوة الجواد في طريق الأشجار المجاور. وكانت متى ابتعدت عنها تقرّب منديلها من عينيها لأن دموعها المتمرّدة التي تنحبس في قلبها كانت تغرق عينيها البائستين. كان واضحاً أن صحبتي لها تُثقل على نفسها. لقد أدركتْ أنني شهدتُ ألمها. ولكنها لم تكن قادرة على السيطرة على نفسها. وقد غضبتُ من نفسي أشد الغضب، ولعنت خراقتي وقلة تبصّري. وعبثاً حاولت أن أبتعد عنها دون أن يدل هذا الابتعاد على أنني قد رأيتُ دموعها، فكنت أسير إلى جانبها مرتبكاً أشد الارتباك، حزيناً لا أجد ما أقوله لها.

لقد هزّني هذا اللقاء، فظللت ألاحظ المرأة الشابة طوال السهرة، مبالغاً في الاستطلاع والتلصّص، لا أحوّل عنها بصري لحظةً من اللحظات. وقد أدركت هي ذلك فابتسمَت لي، وكانت تلك الابتسامة هي الوحيدة التي افترَّ فمها عنها في ذلك المساء. كان الحزن لا يبارح وجهها الذي أصبح الآن شاحباً شديد الشحوب. وكانت تتحدّث مع سيدة طاعنة السن هي عجوز خبيثة الطبع، حادة المزاج، لم يكن أحد يحبها، ولكن كان الناس يخشونها، بسبب هوَسها في التجسس على الجميع، وبسبب لسانها الذي لا ينقطع عن تلفيق الأقاويل والنمائم، فهم مضطرون جميعاً إلى مداراتها ومراعاتها شاؤوا أم أبوا.

في نحو الساعة العاشرة من المساء، ظهر السيد م... فلاحظتَ كيف ارتجفت السيدة م... حين ظهور زوجها هذا الظهور الذي لم يكن في الحسبان، وازداد شحوبها حتى صار أشدّ بياضاً من بياض منديلها. ولاحظ آخرون غيري هذا أيضاً. وسمعت إلى جانبي شذرة من حديث أفهمني أن الأمور لا تجري كلّها على ما تحبّ السيدة م... المسكينة. قالوا إن زوجها غيور عليها غيرة عطيل، وأن غيرته هذه ليس مبعثها الحب بل الغرور. إنه قبل كل شيء رجل أوروبي، رجل عصري، محشوّ الرأس بأفكار جديدة يباهي بها ويدل بها على الناس. وهو طويل القامة، قوي البنية، أسود الشعر، له لحيتان صغيرتان على الخدّين.. يعبّر وجهه الدموي عن الاكتفاء بالنفس. وأسنانه بيضاء كالسكر، وحركاته ومشيته ومظهره، تنطبق كلها على ما يتميّز به من يوصف بأنه «جنتلمان» كامل. وكان يُقال عنه إنه رجل «ذكيّ»، فبهذه الصفة إنما يوصف في بعض الأوساط نوعٌ من البشر يسمنون على حساب الآخرين، ولا يقومون بعمل البتة بل يقضون أوقاتهم في فراغ ولهو، ويملكون في القلب قطعة من شحم. إن هؤلاء الناس يؤكّدون أن مصائب معقّدة غاية التعقيد قد «أضنت عبقريتهم»، وهم يبذلون هذه الجملة المنتفخة التي أصبحت من طول الاستعمال ومن فرط ما يعمد إليها أصحابنا السمان هؤلاء، تظاهراً بنبل العواطف، فيبذلونها لكل قادم جديد كأنها «كلمة سر»، ولأن هؤلاء السخفاء لا يجدون عملاً يقومون به، ولا يبحثون من جهة أخرى عن عمل يقومون به، فإنهم يريدون أن يوهموا الناس بأن قلوبهم تنطوي على أشياء عميقة جداً (والحق أن أمهر الجرّاحين وأبرعهم ما كان لهم أن يعرفوا هذه الأشياء العميقة على وجه الدقة). إن أمثال هؤلاء الناس يستعملون جميع ما أوتوا من غرائز ليستخفوا بالآخرين وليسخروا منهم، فأحكامهم عمياء وصلَفهم مفرط لا حدود له. إنهم لا يزيدون على رصد أخطاء من حولهم، ومراقبة ما فيهم من جوانب الضعف. وإذا كانت طيبتهم لا تفوق طيبة محارة من محار الماء، فإن معاشرتهم للآخرين يحكمها الحذر ويسيطر عليها حب التروي والتبصّر. وهم بذلك فخورون. وإنهم لاقتناعهم بأن البشر كافة، باستثنائهم، أناس حمقى يستطيعون هم عند الحاجة أن يعصروهم كما تعصر برتقالة أو اسفنجة، فإنهم يحسبون أنفسهم سادة العالم، ويحسبون العالم مرهوناً بهم، متوقفاً عليهم. وإنهم يعتبرون هذا الوضع ثمرة ما يملكون من ذكاء، وما يتّصفون به من خلق قوي، وإرادة صلبة، وطبع فذّ. وهم في صلفهم هذا الذي لا حدود له لا يسلّمون بأن لهم عيوباً أو أخطاءً.. إنهم يشبهون أولئك الأوغاد، أمثال تارتوف، أو فالستاف، الذين ينتهون إلى الاقتناع من فرط ما خادعوا ومكروا وغشوا، بأن من حقهم أن يظهروا مخاتلين، ثم هم من فرط ما أقنعوا الآخرين بذلك أصبحوا يعتقدون مخلصين بأنهم أناس شرفاء، مستقيمون. إنهم لا يملكون الوسائل الضرورية لامتحان ضميرهم امتحاناً صادقاً كريماً، ولنقد أنفسهم بأنفسهم نقداً نزيهاً نبيلاً. إن جلودهم أسمَك وأغلَظ من أن تتقبّل مثل هذا الامتحان، أو مثل هذا النقد. إن شخصيتهم الفذّة وذاتهم المتفوّقة هما في نظرهم أشبه بإله العمونيين «مولوك»، أو إله الفينيقيين «جعل». فما وُجدت الطبيعة العظيمة، ولا وُجد الكون كله إلا ليكون مرآة خُلقت ليستطيع الإله الصغير أن يرى نفسه فيها، فيُعجب بها. وهذا يمنعهم من أن يروا كل ما ليس عداهم، وذلك هو السبب في أنهم يرون جميع الأشياء من جانبها الكريه البغيض. إن

هؤلاء الناس يملكون لكل مناسبة من المناسبات جملة مهيأة جاهزة، هي عدا ذلك على «الموضة»، وتلك عندهم قمّة البراعة. ويكونون قد أسهموا هم في خلقها ناشرين في جميع المفارق مزاعم لا تقوم على أساس من الصحّة، لكنهم يقدّرون أنها ستصيب نجاحاً ورواجاً، فهم أناس ينسبون إلى أنفسهم هذه الجمل، فيوهمون أنهم صانعوها، ويكثرون خاصة من التعبيرات التي تفصح عن محبة عميقة للبشر والتعريفات التي تحدّد من العطف على الإنسان تحديداً يتصف بالتعقل والحكمة، ويكثرون من إدانة الاندفاع الرومانسي، أي إدانة الجمال والحق في كثير من الأحيان، الحق والجمال اللذين تساوي ذرَّة منهما من القيمة أكثر مما تساوي أشخاصهم الرخوة الرخيصة كلّها. أما البحث عن الحقيقة فإنهم يجهلونه كل الجهل، وهم يصدّون عن كل ما يتطوّر وينضج. كذلك عاش الرجل السمين حياته بطِراً لا جهد يبذله، جاهلاً ما يقاسيه الإنسان من عناء في كل عمل يقوم به، لذلك ويل ثم ويل لك إذا أنت هاجمت عواطفه، فإنه لن يغفر لك ذنبك أبداً، وسيحمل لك الحقد مدى الحياة، وسيشعر بأكبر المتع حين ينتقم منك. الخلاصة أن بطلنا لم يكن أكثر من كيس ضخمٍ منفوخ، محشو جُمَلاً جاهزة وصيغاً مهيأة وعناوين من جميع الأنواع.

على أن السيد م... كان يمتاز بخاصية تثير الالتفات، فهو رجل حاضر النكتة، بارع الحديث، وهو قصاص يتحلّق حوله الناس في الصالونات. ولقد كان في ذلك المساء مبتهجاً، مرحاً، مسروراً بلا سبب ظاهر. وإذ ظفر بتركيز انتباه الناس حوله فقد سيطَر على الحديث. ولا كذلك السيدة م... فقد كان يبدو عليها من الألم والحزن ما جعلني أتوقّع أن تختلج على أهدابها الطويلة دموع، فكان ذلك كله يحزنني أشد الحزن كما سبق أن قلت. وقد انصرفتُ حائراً طائش اللب، ووافاني في الليل كابوس مزعج إذا حملت بالسيد م...

وفي صباح الغد نوديت إلى التمرّن على اللوحات الحية التي كنت أشارك فيها بدور صغير. وكان موعد عرض اللوحات الحية وتمثيل المسرحية وإقامة الحفلة الراقصة بعد بضعة أيام في عيد ميلاد الابنة الصغرى لصاحب الدار. وكان ينتظر أن يأتي ما يقرب من مائة شخص من موسكو والقرى المجاورة لحضور هذا العيد الذي ارتُجل ارتجالاً تقريباً. ومن أجل ذلك كان المنزل مليئاً بالحركة والصخب وكان علينا أن نقوم بعمل كثير. إن التمرّن على المشاهد بملابس التمثيل قد حُدِّد موعده ساعة مبكرة من الصباح، لأن المُخرج وهو الرسام الشهير ر... صديق صاحب الدار وضيفه، كان بعد أن أخذ على عاتقه لصداقته بصاحب الدار أن يؤلّف اللوحات الحية، وأن يُخرجها وأن يمرِّننا كذلك عليها، كان عليه أن يسرع إلى المدينة لشراء بعض الأشياء الضرورية للحفلة. فلم يكن ثمة وقت يجوز أن يضيع، وكانت اللوحة التي عليَّ أن أمثل فيها مع السيدة م... مشهداً من القرون الوسطى عنوانه «ربة القصر وخادمها الغلام».

فلما اجتمعتُ بالسيدة م... شعرت باضطراب عميق. كنت على يقين أنها قارئةٌ في عينيَّ الخواطر والشكوك والتخمينات التي قامت في ذهني البارحة. وكنت أخشى عدا ذلك أن أكون قد قارفت خطيئة إذ فاجأت دموعها وألمها، فكنت أقول لنفسي: إنها ستنظر إلي نظرة شزراء حتماً لأنني اطلعت على سرها من حيث أرادت أن

تخفيه. ولكن كل شيء جرى من غير أن ينكدني ولله الحمد: كل ما هنالك أنني ظللت مُهمَلاً لا يفطن أحد إليَّ. لم تكن السيدة م... مهتمة لا بالتمرين ولا بشخصي، بل كانت ذاهلة، وكان يبدو عليها الحزن والتفكير. كان واضحاً أن هماً كبيراً يملأ جوانب نفسها، فلما فرغنا من التمرين أسرعتُ أبدّل ملابسي، ثم خرجت بعد عشرة دقائق إلى الشرفة التي تفضي إلى الحديقة. فإذا أنا أرى السيدة م... تخرج إلى الشرفة من باب آخر. وفي تلك اللحظة نفسها كان يتقدّم نحونا زوجها عائداً من الحديقة بعد أن صحب فيها طائفة من السيدات، ثم عهد بهنَّ إلى «فارس مرافق آخر»، إن إلتقاء الزوجين لم يكن في الحسبان في ما يبدو، فما إن رأت السيدة م... زوجها حتى ظهر عليها أنها ضيّقة الذرع بهذا اللقاء، وحتى إنها حرّكت يدها بإشارة تدلّ على التململ والأسف. أما زوجها الذي كان يسير قبل ذلك صافراً غير حافل بشيء، ملاعباً لحيته، فإنه قد تجهَّم وعبس وتفرَّس في زوجته بنظرة فاحصة، ثم سألها وهو ينظر إلى الشمسية والكتاب الذي كان بيدها

- أأنتِ ذاهبة إلى الحديقة؟

أجابته وقد احمرّت قليلاً:

- بل إلى الغابة.

- وحدك؟

- بل معه.

كذلك قالت وهي تومئ إليَّ بصوت متقطع، هو الصوت الذي يصطنعه المرء حين ينطق بكذبته الأولى.

- همْ... كنت منذ برهة هناك أصحب جماعة بكاملها. إنهم يتجمّعون في الجناح المزهر ليرافقوا السيد ن... إنه مسافر هل تعلمين؟ ... إن مشكلة مزعجة تحمله على السفر إلى أوديسا. وابنة عمك (يقصد الشقراء)، تضحك وتبكي في آن واحد، فلا يفهم المرء ما بها، ثم إنها قالت لي، لا أتذكّر الآن لأي سبب، أنك قد ثرت عليه ولم تشائي مرافقته... لترِّهات طبعاً؟

- هي مزحة.

بذلك أجابته السيدة م... وهي تهبط درجات الشرفة.

وأضاف السيد م... يقول وقد صعَّر خدَّه ناظراً إليَّ من خلال نظارة يحملها بيده:

- أهذا هو إذاً فارسك المخلص الأمين؟

فصمت أقول منزعجاً من نظراته ومن سخريته:

- أنا خادمها الغلام.

قلت ذلك وضحكت أمام أنفه، ثم هبطت الدرجات الثلاث بقفزة واحدة.

دمدم السيد يقول وهو يبتعد:

- نزهة سعيدة.

ومنذ أومأت إليَّ السيدة م... وهي تخاطب زوجها، فقد اقتربت منها بطبيعة الحال، كما لو كنت حقاً الشخص الذي لا يفارقها، وكما لو كنت قد تعوّدت هذه النزهات اليومية معها. ولكنني لم أستطع أن أفهم سبب اضطرابها وسبب كذبتها الصغيرة. وقد أصبحتُ لا أستطيع أن أنظر إليها وجهاً لوجه، ومع ذلك فقد أخذتُ أرشقها بنظرات سريعة صغيرة، مستطلعة، ساذجة. غير أنها لم تكن تحفل لا بنظراتي ولا بتساؤلي الأخرس، كما كان شأنها كذلك أثناء التمرين. إن تعبير وجهها واضطرابها ومشيتها، إن ذلك كلّه يدلّ على عذاب تعانيه في أعماق نفسها. كانت تسرع في سيرها وتحث الخطى، وتلتفت نحو الحديقة ترصد ممرات الأشجار، ومنافذ الغابة الصغيرة قلقة. وكنت أنا أيضاً أتوقّع شيئاً ما. وفجأة دوَّت وراءنا أصوات وقع حوافر الخيل، إنها جماعة من الفرسان والفارسات يرافقون السيد ن... الذي يتركنا فجأة على غير توقّع.

وكانت بين السيدات تلك السيدة الشابة الشقراء التي أشار السيد م... منذ قليل إلى دموعها الهاطلة، ولكنها كانت عندئذ تضحك على عادتها كصبية صغيرة، وهي تعدو على صهوة حصانها الجميل الأكمت. رفع السيد ن... قبعته، ولكن دون أن يتوقّف، ودون أن يخاطب السيدة م... بكلمة واحدة. وسرعان ما غاب الركب عن أبصارنا. ونظرتُ إلى السيدة م... فكدت أصرخ من فرط الدهشة: لقد كانت متجمّدة، شاحبة كمنديلها، وكانت تترقرق في عينيها دموع كبار، والتقت نظراتنا مصادفةً، فأشاحت عني وقد احمرَّ وجهها، وظهر عليها الغَمُّ والانزعاج. لقد كان وجودي يضايقها. ذلك واضح وضوح الشمس ولكن كيف عساني انسحب؟ ...

وفجأة غيَّرت رأيها ففتحت كتابها وقالت لي دون أن تنظر إليَّ:

- أوه! لقد أخطأت فحملت المجلد الثاني من الكتاب، فهل لك أن تجيئني بالمجلد الأول؟

قالت ذلك متظاهرةً بأنها لم تلاحظ هذا إلا في تلك اللحظة.

كيف لا أفهم أن دوري قد انتهى؟ لقد كان يستحيل عليها أن تصرفني بخشونة مباشرة، فاحتالت على الأمر بالكتاب، مضيتُ بالكتاب ثم لم أعد، وظلّ المجلد الأول ساكناً على المنضدة في ذلك الصباح.

ولكني كنت كروح معذَّبة، وكان قلبي ينبض ذعراً ورعباً. وحاذرت أن أقابل السيدة م... ولكنني في مقابل ذلك أخذت أسبر بنهم شديد وجه زوجها الذي يعبّر عن الاكتفاء والثقة، كأنني كنت أتوقّع أن أجد فيه الآن شيئاً خاصاً، لست أفهم شيئاً من هذا النهم المضحك إلى الاستطلاع. كل ما أتذكّره أن مشاعري في ذلك الصباح قد أسرت نفسي وأغرقتني في دهشة غريبة. والحق أن النهار كان في أوله، وقد جاء حافلاً بالحوادث بعد ذلك فعلاً.

تناولوا طعام الغداء في ذلك اليوم مبكرين. ذلك أنهم سيقومون برحلة إلى القرية المجاورة في المساء نشداناً للبهجة في عيد قروي سيُحتفل به هناك. وكان علينا أن

نهيئ أنفسنا لهذه الرحلة. والحق أني ظللت أحلم بهذه الرحلة أياماً ثلاثة، وكنت أتوقّع منها متعاً كثيرة ومباهج لا تحصى. واجتمعوا بعد الغداء على الشرفة لاحتساء القهوة، فحرصتُ على التسلل في أثرهم، واختبأت وراء الصفوف الثلاثة من المقاعد يدفعني إلى ذلك ما كان يجيش في نفسي من حب الاستطلاع، ولكنني لم أرد أن أظهر للسيدة م... وشاءت الصدفة أن تضعني بجوار شقرائي الرهيبة التي كان جمالها في ذلك المساء يشرق بمزيد من السناء والضياء. كان جمالاً فذاً. إن هناك أموراً تقع للنساء لا أدري لماذا ولا أدري كيف! ولكنها تقع في بعض الأحيان... كان بيننا في تلك اللحظة قادم جديد يعبد شقراءنا ويلازمها هو شاب شاحب الوجه، فارع القامة، وصل من موسكو كأنما ليحل محل ن... الذي كانت الإشاعات تقول عنه إنه مجنون غراماً بشقرائنا. أما هذا السيد فإن العلاقة بينه وبينها كانت كالعلاقة بين بنديكت و بياتريس في مسرحية شكسبير «ضجة كبيرة في غير طائل» ([1]).

الخلاصة أن حسناءنا كانت في ذلك اليوم مشرقة المزاج، منطلقة الأسارير، فأمازيحها رقيقة، وهزلها رشيق مملوء ثقة، بريئة وجرأة مقبولة، وهي شديدة الاطمئنان إلى إعجاب الناس بها، على لطفٍ وذوق وفي غير صلفٍ، فكان نجاحها نجاحاً كبيراً حقاً. كان المعجَبون بها والمصغون إليها يحيطون بها وقد امتلأت نفوسهم نشوة، وكانت هي في تلك الساعة فاتنة، آسرة، ساحرة أكثر من أي وقت مضى، فما من كلمة تنطق بها إلا وتُتَلَقفُ طائرةً، فتنتقل بين الناس من واحد إلى واحد، وما من دعابة من دعاباتها إلا ويستمتع بها كل فردٍ من أفراد الحفل، وكأن أحداً من هؤلاء الناس كان لا يتوقّع منها كل هذا الذوق المرهف، وكل هذا التأنق الساطع، وكل هذه البديهة الحاضرة، والقريحة الخصبة، والفكاهة الحلوة. إن أحسن مزايا هذه المرأة كانت في الحياة الجارية، تختفي وراء نزوات شاذة، وبدوات طائشة، فما يفطن إلى هذه المزايا أحد، أو تظل أمراً مشكوكاً فيه مختلفاً عليه، لذلك أثار انتصارها في هذا اليوم دمدمةً تعبّر عن دهشة قوية، وإعجاب شديد. ولقد وقع حادث أسهم في نجاحها، للدور الذي مثله فيه زوج السيدة م... فقد قرّرت هذه الشيطانة أن تنقضّ عليه بهجومها، لأسباب لا شك أنها كانت تعدّها مهمة، فما كان أشد فرحة جمهرة الناس، ولا سيما الشباب منهم عند ذاك. أخذت تمطره بوابل من مِلَح لطيفة، وسخريات لاذعة مفحمة معاً، تصيب هدفها رأساً ولا تدع للخصم مجالاً للهروب منها، كأنها سهام تُجهِزُ على الضحية العاجزة بإثارة حنقه الشديد وغيظه الفظ.

يخيل إليَّ - دون أن أستطيع القطع بذلك - أن هذا المشهد لم يُرتجل ارتجالاً بل هُيّئ سلفاً. وكانت هذه المبارزة الحامية الوطيس قد بدأت أثناء الغداء. وإذا كنت أصف المبارزة بأنها كانت حامية الوطيس فلأن السيد م... لم يلقِ سلاحه ولم يستسلم إلا بعد زمن. لقد استجمع كل ما يملك من حضور البديهة حتى لا يُغلب، وحتى لا يقع فريسة للضحك عليه والهزء به. وقد جرت المعركة وسط قهقهات لا تنقطع، تنطلق من حناجر المستمعين والمشاركين فلم يبقَ وضع السيد م... اليوم على ما كان بالأمس. وحاولت السيدة م... عدة مرات أن تثني صديقتها الطائشة التي كانت تريد

في أغلب الظن، ولا سيما حين جعلت لي دوراً في هذه المسخرة، أن تخلع على الزوج الغيور جميع ما عُرف عن «بارب بلو» (2) من أصباغ زائفة.

لقد حدث هذا فجأة على نحو يثير أشد الضحك: لقد اتفق في تلك اللحظة أن كنت على مرأى من جميع الناس، كأنما على قصد، من دون أن أفكر في سوء ناسياً جميع ما اتخذت من احتياطات أخيرة، فها هي ذي تجعلني على حين بغتة في المحل الأول من معركتها مع الخصم عدواً للسيد م... أو غريماً له، مفتوناً بامرأته، مولّه القلب بها، وها هي ذي الشقراء الرهيبة تحلف أنها تملك البراهين على ذلك، وأنها في هذا الصباح نفسه قد رأت في الغابة...

لم يتسع الوقت لإنهائها كلامها، فسرعان ما قاطعتُها في أحرج لحظة، وكانت هذه اللحظة مقدّرة سلفاً، ومهيأة لأن تكون هيا الخاتمة المضحكة أحسن تهيئة هزلية، فإذا بانفجار من ضحك لا يغالب يشب تحيةً للنكتة. ورغم أن دوري أنا في هذه المزحة لم يكن أبشع دور، فقد بلغت من الاضطراب والاهتياج والذعر أنني وثبت من خلال صفيّ المقاعد لاهثاً من شعوري بالخجل والعار، وتقدمت إلى الأمام وصحت أخاطب جلّادتي الشقراء بصوت تكسِره دموعي ويقطعه استيائي:

- ألا تستحين؟ ... تقولين كذبة مشينة كهذه الكذبة، جهاراً، هنا بحضور جميع هاته السيدات؟ ... وأمام هؤلاء الرجال... ما عساهم يقولون؟ تتصرّفين تصرف طفلة أنت الشخص الكبير... أنت المرأة المتزوجة...

لم أكن قد أنهيت كلامي بعد حين انطلق التصفيق. لقد أحدث رَدّي هذا موجة عارمة من الصخب. فإن براءتي وسذاجتي ودموعي وكوني كمن يدافع عن السيدة م... قد أطلق ضحكاً جهنّمياً. والحق أنني ما زلت إلى الآن حين أتذكّر هذه الحادثة تنتابني نوبة من الضحك مجنون.

هرعت أخرج متدليَّ الرأس، مصعوق النفس، مخبِّئاً وجهي، حتى لقد قلبت الطبق الذي كان الخادم داخلاً به على القوم، فسقط من يديه على الأرض. وأسرعت إلى غرفتي فانتزعت المفتاح من القفل وحبست نفسي داخل الغرفة. وسرعان ما أقبلت طائفة من جميلات النساء تحاصرن غرفتي في تلك اللحظة نفسها. كنت أسمع ضحكاتهنّ الرنانة، وزقزقاتهنّ التي تشبه زقزقات السنونو، وهن يضرعن إليّ بصوت واحد أن أفتح لهنّ الباب، حالفات أنهنّ لا يردن بي سوءاً، وأنهنّ لا يرغبن إلا في إغراقي بالقبل، وهل هنالك تهديد أشد هولاً من هذا التهديد! لذلك ظللت معتصماً بغرفتي، دافناً وجهي في المخدات، محترقاً من شعوري بالعار، لا أجيب ولا أفتح ولا أحسّ بشيء ولا أسمع شيئاً كما يمكن أن يكون صبي في الحادية عشرة.

ولكن ما العمل الآن؟ إن كل ما حرصت على إخفائه قد انكشف وأزيح عنه الحجاب! لقد غُمرت بالعار وتلطّخ شرفي إلى الأبد... الحق أنني لم أكن أستطيع أن أحدّد على وجه الدقة ما كنت أخشاه وما كنت أود أن أخفيه. غير أن هناك شيئاً ما، شيئاً لا يُعرَف ولا يُحدَّد كنت أخشاه، وأرتعش قلقاً متى تصورتُ أن ينكشف. كنت أجهل حتى ذلك الحين هل يجب اعتبار ذلك الشيء حسناً أو سيئاً... هل يجب اعتبارهُ

مدعاة فخر أو مدعاة خزي... هل يجب اعتباره أمراً محموداً أو أمراً مذموماً... وها أنا ذا أكتشف منذ برهة على ألم وعذاب، أن هذا الشيء مضحك ومعيب، وشعرت في الوقت نفسه بغريزتي أن حكماً كهذا الحكم خاطئ غير إنساني، ولكنني كنت محطماً، منهاراً، وكان اضطراب كبير يجتاح فكري، وكنت عاجزاً عن الاعتراض على هذا الحكم القاسي، بل كنت عاجزاً عن التفكير أصلاً. كل ما هنالك، أنني شعرت بقلبي طعيناً مقروحاً في قسوة، فكنت أسكب دموع العجز. إنني مهتاج النفس، أغلي استياءً وغضباً لا عهد لي بمثلهما من قبل، ذلك أن هذا الحادث كان أول حزن كبير أصابني... أقول هذا بغير مبالغة... وكان أول طعنة خطيرة نالتني في حياتي. لقد جرحوا أول عاطفة غامضة بريئة في الطفل الذي كنته، وأساؤوا إلى حياءٍ طاهر جدًّا، واستخفوا ضاحكين بأول شعور عميق بالجمال. وطبيعي أن هؤلاء الهازئين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن هذه الآلام المبرحة التي قامت في نفسي. ولبثت مستلقياً طريح القلق والكرب الشديد ينتابني حرٌّ وبردٌ متلاحقان. وكان هنالك سؤالان يبعثان القلق في روحي: ما الذي رأته؟ ما الذي أمكن أن تراه هذه الشقراء الخبيثة الشريرة في الغابة مما يتصل بي وبالسيدة م...؟ ثم كيف أستطيع بعد اليوم أن أحتمل نظرة السيدة ,م... دون أن أموت خزياً وكمداً؟ ...

وهذه ضوضاء مفاجئة تقوم في فناء المنزل فتوقظني أخيراً من هذه الحالة التي كنت فيها شبه غائب عن شعوري، فنهضت واقتربت من النافذة، إن الفناء كله يعج بالمركبات والخيول والخدم المنهمكين في العمل كان واضحاً أنهم يتهيأون للرحيل. حتى إن بعض الأشخاص كانوا قد امتطوا صهوات الجياد، وكان بعضهم الآخر يركب العربات، فتذكّرت فجأة، الرحلة التي كانوا قد أزمعوا على القيام بها، فأخذت أبحث بنظري عن حصاني وقد استبد بي القلق: لم يكن حصاني هناك. إذاً فقد نسوني. لم أطق أن أصبر مزيداً من الصبر، فأسرعت أخرج من غرفتي ناسياً عَاري واللقاءات الأليمة التي ستقع لي.

وكان ينتظرني نبأ رهيب. إن ضيوفاً جدداً كانوا قد وصلوا فشغلوا جميع الأمكنة وأخذوا جميع الجياد. وكان عليّ أن أذعن. وقفت على درجات المدخل متألماً من هذه المصيبة الجديدة، أنظر حزيناً كئيباً إلى موكب العربات المتنوعة الكثيرة، وإلى الفرسان الأنيقين الذين تتواثب من تحتهم الخيول القوية.

وكان أحد الفرسان قد تأخر، فهم لا ينتظرون إلا وصوله حتى يبدأوا المسير. كان حصانه يقضم لجامه ويضرب الأرض بحوافره، ويشبّ حِدةً وغيظاً. وكان هنالك سائسان يمسكان أزمَّة الحصان في حذر، وكان جميع الحضور يقفون من الحصان على مسافة.

إن حادثاً مؤسفاً هو الذي يمنعني من الرحيل مع الآخرين. فقد مرض حصانان، أحدهما حصاني. ولم يسئ هذا إليَّ وحدي. فقد اتضح أن الرجل الشاب الشاحب كان يعوزه حصان هو أيضاً. وقد عرض عليه صاحب البيت، تفادياً للمشاكل، مهراً جموحاً غير مروَّض وأضاف يقول له إبراءً لذمته إن ركوب هذا المهر أمر مستحيل، وأنه كان عليه أن يبيعه منذ زمان طويل، بسبب توحّش طبعه، إذا وجد من يقبل شراءه. فلما سمع الرجل الشاب هذا الكلام أعلن أنه مستعد لركوب أي

حصان في سبيل أن يستطيع الاشتراك في الرحلة، وأنه فارس أَلِفَ ركوب الخيل. عندئذ لزم ربّ الدار الصمت. وأظن الآن أنني لمحت على شفتيه عندئذ إبتسامةً ملتبسةً مليئة بالمكر. وبانتظار هذا الفارس الواثق من نفسه، المطمئن إلى حُسن ركوبه الخيل، كان صاحب الدار يفرك يديه إحداهما بالأخرى نافد الصبر، وهو يلقي نظرات في اتجاه الباب. وكأن مشاعره كانت تنتقل إلى خدم الإسطبل الذين كانوا يشعرون بزهو شديد لأنهم سيعرضون على المشاهدين حصاناً قادراً على أن يقتل إنساناً بغير سبب. فكانت أعينهم المحملقة تنظر هي أيضاً نحو الباب الذي سيظهر منه الزائر المتهوِّر، وتعبّر عن معنى المكر نفسه الذي كانت تعبر عنه عينا مولاهم. وكأنّ الحصان نفسه كان يشعر بأن ثمة مؤامرة عليه، فهو يبدو متكبراً، متعجرفاً، وقحاً، وكأنه يدرك أن عشرات العيون المستطلعة تراقبه، فهو (مثله في ذلك مثل الشرير الذي لا سبيل إلى إصلاح خُلُقه والذي يعتز بما يقارف من أعمال إجرامية) يبدو فخوراً بسمعته السيّئة، متأهباً لتحدي الجريء الذي سيحاول الاعتداء على استقلاله.

وظهر الشاب الجريء أخيراً يهبط الدرجات وهو يدسّ يديه في قفازيه مسرعاً، خجلاً من تأخّره، ولم يرفع الشاب عينيه إلا حين أمسك عرف الحصان، ولكنه فوجئ بوثبة الحصان هائجاً حانقاً، وبالناس المذعورين يصيحون به محذِّرين. فيطيش لبّه ويتراجع إلى الوراء ويأخذ ينظر مذهولاً إلى الحصان الذي كان يرتجف كورقة في مهب الريح، ويصهل صهيل الغضب، مجيلاً عينيه المحتقنتين دماً. لقد شبَّ الحصان منتصباً على قائمتيه الخلفيتين كأنه يهمّ أن يطير في الهواء جاراً حارسه. وجم الشاب واحمرَّ وجهه ارتباكاً، ونظر إلى السيدات الخائفات، ثم قال كأنه يخاطب نفسه:

- هذا حصان رائع جداً. واضح أن ركوبه لا بد أن يهيئ للفارس متعة عظيمة... ولكن... ولكنني لن أركبه...

كذلك أكَّد لصاحب الدار وهو يبتسم ابتسامة عريضة صريحة تناسب وجهه الذكي...

فأجابه صاحب الحصان مبتهجاً كل الابتهاج، مصافحاً يد الزائر بحرارة يمازجها عرفان، قائلاً:

- إنني أعدُّك مع ذلك فارساً ممتازاً... أقسم لك على ذلك... لأنك أدركت فوراً طبيعة الحصان الذي أردت ركوبه (أضاف ذلك برصانة ووقار). هل تصدّق أنني أنا الذي خدمت في سلاح الفرسان مدة ثلاثة وعشرين عاماً قد أسقطني هذا الكسلان عن ظهره على الأرض ثلاث مرات، أي عدد المرات التي حاولت فيها ركوبه... يا عزيزي تانكريد (أضاف يخاطب الحصان)، ليس بيننا فارس من مستواك هنا. قد يكون فارسك رجلاً مثل إيليا مورومتس ([3]) يبقى ثلاثين سنة في قريته كسيحاً بانتظار أن تفقد جميع أسنانك. هيا أرجعوه إلى الإسطبل! كفى تخويفاً للناس! ما كان ينبغي إخراجه.

بذلك ختم ربّ الدار كلامه وهو يفرك يديه ويبدو على وجهه الرضى.

يجب أن نذكر هنا أن تانكريد الذي يزدرد طعامه عند صاحب الدار لم يكن عديم الفائدة له. فلئن فقد هذا الفارس الشيخ بفضله ما كان يتمتع به من شهرة الفارس لأنه دفع مبلغاً ضخماً ثمن هذا المهر الذي لا يصلح لشيء، والذي لعله لم يكن يرضيه فيه إلا جماله... فلقد كان سعيداً كل السعادة بأن تانكريد عرف كيف يحتفظ بشممه، وأنه يرعب فارساً جديداً من حين إلى حين، فيحرز بذلك مزيداً من أكاليل الغار.

صاحت الشقراء التي كانت تحرص أشد الحرص على صحبة فارسها، تقول:

- ألا تجيء إذاً؟ أخائف أنت حقاً؟

فأجاب الشاب:

- نعم.

- أصحيح ما تقول؟

- اسمعي! أأنت تصرّين حقاً على أن تُدقَّ عنقي؟

- إذاً خذ حصاني.. لا تخش شيئاً، إنه طيّع جواد... لن يؤخّرنا هذا كثيراً... سنتبادل السرجين في طرفة عين... سأجرّب أنا تانكريد. فليس يمكن أن يكون دائماً قليل الكياسة واللباقة إلى هذا الحد.

وما إن قالت الشقراء ذلك حتى فعلت، فإذا هي تقفز عن حصانها.

- أنتِ لا تعرفين تانكريد إذا ظننت أنه سيأذن لك بركوبه، ثم إنني لا أسمح لك بأن تتعرّضي لدق عنقك! إنها لخسارة أن تُدَقَّ عنقك.

كذلك قال صاحب الدار باللهجة الخشنة القاطعة التي أَلِفَ اصطناعها ظاناً أنه يبرهن بذلك على الطيبة التي يتصف بها محارب شهم يحب إرضاء النساء. ذلك هوى من أهوائه الغريبة وتلك فكرة من فِكرِه الأثيرة معهودة فيه.

قالت الشقراء وقد لمحتني:

- هيه! أنت أيها البكّاء! ما دمت ترغب هذه الرغبة كلها في المجيء معنا، فهلا حاولت أن تركب هذا الحصان؟

قالت ذلك وهي تومئ إلى تانكريد لتغيظني وربما لتحقّق آخر نصر عليَّ.

ثم أضافت تقول وهي تلقي نظرة مختلسة على السيدة م... التي كانت عربتها قريبة كل القرب:

- فأنت طبعاً لست مثل... أنت بطل شهير... أنت تستحي أن يستبدَّ بك الهلع.

وحين اقتربت الشقراء الجميلة منّا تنوي ركوب تانكريد كان الكره والحقد قد أغرقا قلبي... ولكنني لا أستطيع أن أصف ما شعرت حين ألقت بوجهي ذلك التحدي. إن نظرتها إلى السيدة م... قد أطاشت صوابي، فإذا بفكرة مفاجئة تنبجس في رأسي... لقد تمّ هذا كله في لحظة واحدة، لحظة قصيرة، كانفجار بارود، كقطرة طفح بها الكيل، ثارت روحي ثورة قوية، وتمنيتُ أن أغلب جميع خصومي دفعة واحدة، أن

أثأر لنفسي منهم جميعاً على مرأى من الناس، لأعلمهم كيف يقدّرونني حق قدري. تُرى، هل حدثت معجزة في تلك اللحظة فعلّمتني تاريخ القرون الوسطى الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً حتى ذلك الحين، فإذا بفكري المقلوب رأساً على عقب يعجّ فجأة بتهاويل الفرسان والمغامرين والأبطال والحسناوات وقرقعات السيوف وصيحات الإعجاب وتصفيق الجماهير، والصرخة الوجلى وسط هذه الضجة كلها تصدر من قلب خائف أحب إلى النفس المتكبّرة من ظفر مجيد؟ ... الحق أنني أجهل هل مرت هذه الصور كلها بخيالي حقاً أم إن الأمر لا يعدو أن يكون توجّسا لما يوشك أن يقع حماقات لا مفرَّ منها... المهم أن قلبي قد وثب من مكانه فإذا أنا أقفز من على الدرجات، وأجدني أمام من؟ تانكريد وجهاً لوجه، وأصيح مخاطباً الشقراء بلهجة متكبرة وقحة، وقد أعمتني الحمّى وخنقني الانفعال واحترق خداي وفاضت دموعي:

- أتحسبين أنك تخيفينني؟ إذاً ستَرين؟ أمسكت عرف الحصان قبل أن يتسع وقت أحد للقيام بأية حركة من أجل صَدّي عن ذلك، ووضعت قدمي في الركاب، فإذا بالحصان يرفع رأسه فى هذه اللحظة نفسها ويشب منتصباً على قائمتيه ثم يثب وثبة جبارة منتزعاً نفسه من بين يدي الخادمَيْن المبهوتَيْن، المتجمدين، وينطلق طائراً كالإعصار. ولم يستطع الضيوف إلا أن يطلقوا صرخة.

الله يعلم كيف أمكنني أن أضع القدم الأخرى في الركاب الثاني بينما كان الحصان طائراً ذلك الطيران. والله يعلم أيضاً كيف لم أرخ اللجام. انطلق تانكريد بي من باب السور وانعطف يمنة واندفع لا يحفل بالطريق الذي يعدو فيه، وسمعت ورائي في تلك اللحظة صياح خمسين صوتاً، فبعث هذا الصباح في قلبي الخائف القلق من الرضى والزهو والعجب، ما يجعلني لا أنسى تلك اللحظة من حياة طفولتي. لقد ازدحم سيل من الدم في رأسي فأعماني وخنق خوفي. كنت خارجاً عن طوري. وأحسب أن ذلك كله كان فيه شيء من الفروسية حقاً.

على أن هذا كله لم يستغرق إلا لحظة قصيرة. ولولا ذلك لما أمكن إنقاذ الفارس. لقد سبق أن تعلمت ركوب الخيل. ولكن الحصان الذي كنت أركبه يوم تعلمتُ ركوب الخيل كان أقرب إلى الحمل منه إلى الحصان. ولو قد اتسع وقت تانكريد لقلبي عن السرج لسقطت حتماً. ولكن ما حدث هو أن صخرة كبيرة على حافة الطريق أرعبت الحصان فجأة. فاستدار على حين بغتة استدارة تبلغ من القوة أنني لا أفهم كيف لم أسقط على الأرض مهشّم العظام. وأسرع تانكريد نحو باب السور وهو يهز رأسه هزاً حانقاً ويتواثب تواثباً جامحاً، كأن نمراً كان ينشب براثنه وأنيابه في ظهره، فلو قد دام الأمر لحظة واحدة لرماني على الأرض. ولكن الفرسان كانوا قد هبّوا إلى نجدتي، فبعضهم سد طريق الحقل وجاء آخران فاقتربا مني اقتراباً بلغ من الالتصاق أنهما أوشكا أن يسحقا قدميَّ وهما يضغطان الحصان بين جنبَيّ حصانَيْهما، واستطاعا أن يستوليا على الزمام.

أُنزِلتُ عن السرج أصفرَ اللون، مشعَّث الوجه، مرتجفاً كقشة، تماماً مثل تانكريد الذي تجمّد وهبط بكل جسمه إلى الوراء، حتى لكأن حافريه قد غاصا في الأرض. وكان زفير من نار يخرج من منخريه، إنه مضطرب أشد الاضطراب، لا ينفك عن

الارتجاف والارتعاش، كأنما صعقته هذه الإهانة وهذه المسبَّة اللتين ألحقهما به صبيّ، ولم يستطع أن يعاقبه عليهما. ومن حولنا كانت تترجَّع صيحات دهشة وقلق وتعجّب.

وفي هذه اللحظة بينما كنت أجيل بصري في من حولي إلتقت نظرتي بنظرة السيدة م... القلقة الشاحبة. فخفضت عينيَّ وقد احمرَّ وجهي احمراراً شديداً كأنما اجتاحني لهيب قوي، فخجلت واضطربت من عاطفتي نفسها. ولكن الناس كانوا قد لاحظوا هذه النظرة. كأنما قد أدركوها. كانوا قد تلقّفوها. كانوا قد سرقوها. فإلتفتت جميع الأعين نحو السيدة م... التي أُخِذَت على حين غرة، فاحمرَّ وجهها هي الأخرى، وهزها انفعال قوي بريء على غير إرادة منها، فكانت تحاول أن تخفي احمرار وجهها ببسمة في شفتيها.

وطبيعي أن من يرى هذا المنظر كلّه من الخارج لا بد أن يضحك... غير أن نزوة ساذجة غير متوقّعة قد أنقذتني من ضحك الناس كافة، إذ أسبغت على هذه المغامرة كلها لوناً خاصاً، فإن تلك المرأة التي كانت أصل هذه البلبلة كلها أعني خصمي اللدود، حسنائي الطاغية، قد أسرعت إليَّ تعانقني وتقبّلني. إنها لم تصدّق عينيها حين تجرأتُ فقبلت تحدّيها، ورددت على استفزازها لحظة ألقت نظرةً على صديقتها. وحين طار بي تانكريد كانت أشبه بالميتة خوفاً وندامة. وقد انتهى الآن كل شيء، وأدركت هي أيضاً نظرتي المحدقة إلى السيدة م... ولاحظت اضطرابي، ووجد رأسها الرومانسي علة خفية لموقفي فهزّتها حركتي الفروسية. إنها الآن فخورة بي، تشدّني إلى صدرها منفعلة، فرحة. وها هي ذي ترفع نحو الذين يحيطون بها وجهاً صغيراً ساذجاً، متوحشاً، ترتعش فيه دمعتان صغيرتان كالبلور، وتقول بصوت رصين لا عهد لأحد به فيها من قبل، وهي تشير إليَّ غير منتبهة إلى إعجاب الذين كانوا يتأملونها مفتونين مسحورين:

- لا تضحكوا أيها السادة فالأمر جَدّ ليس فيه ما يُضحك.

هذه الاندفاعة السريعة، وهذه الهيئة الجادة البريئة، وهذه الدموع في العينين الضاحكتين عادةً، هذا كله بلغ من قوة التأثير أن الناس أصبحوا من نظراتها وأقوالها الحارة وحركاتها الجميلة كمن مسَّتهم كهرباء، فهم الآن يحتضنونها بأبصارهم حريصين على أن لا يفوتهم شيء من تفاصيل هذا المشهد الملهم. حتى صاحب الدار اعترف في ما بعد وهو يحمرّ احمراراً شديداً أنه كاد يقع في غرام هذه الحسناء حينذاك. وطبيعي أنني رُقّيت بعد ذلك الحادث إلى رتبة فارس وبطل.

- دولورج! توجنبرج! (4)

كذلك ارتفع صياح الإعجاب من حولي. وكانوا يصفقون. وأضاف رب الدار يقول:

- أرأيتم إلى هذا الجيل الجديد!...

وصاحت الشقراء:

- سيجيء معنا! لا بد أن يجيء معنا! يجب أن نجد له مكاناً... سيجلس إلى جانبي.

ولكنها لم تلبث أن تداركت تقول ضاحكة وقد تذكرت اصطدامنا الأول:

- لا... لا... هذه غلطة...

ولكنها كانت وهي تضحك تلاعب يدي في رقة وحنان من قبيل الملاطفة.

وصاح الآخرون يقولون:

- طبعاً... طبعاً... يجب أن يجيء معنا... لقد استحقّ مكانه.

وسرعان ما دُبِّر كل شيء. فإن العانس التي عرَّفتني بالشقراء الجميلة وافقت على تلبية طلب الجميع، ولا سيما الشبان، أن تبقى في البيت لتخلي لي مكانها، وافقت على ذلك آسفة متحسّرة، وهي تبتسم إخفاءً لما قام في نفسها من غيظ مكظوم. وقالت لها صديقتي الجديدة، أعني عدوَّتي القديمة، قالت لها صائحة وهي تعدو على صهوة جوادها الشرس وتضحك كطفل: إنها تحسدها، إنها تغبطها على بقائها في المنزل، وأنها كان يسرّها أن تبقى في المنزل لأن المطر سينهمر حتماً فيبللنا جميعاً.

وقد تحقّقت نبوءتها، حتى لقد أخذ المطر يهطل مدراراً، فأخفقت نزهتنا، واضطررنا أن نلبث بضع ساعات في أكواخ الفلاحين، ثم عدنا إلى المنزل في مساء رطب. وكان بي شيء من الحمى. وقد أدهش السيدة م... أثناء عودتنا، أن رأتني لا أرتدي إلا صديرة بسيطة، وأن رأت عنقي عارياً. ذلك أنّ وقتي لم يتّسع حين الرحيل للإتيان بمعطفي. وها هي ذي ترفع ياقة قميصي إلى فوق. وتربط طرفَيها بدبوس، ثم تنضو وشاحها الحريري الأرجواني الصغير فتلف به عنقي لتحميني من الزكام، فعلت ذلك بسرعة عظيمة حتى إن وقتي لم يتسع لأن أشكر لها صنيعها.

فلما وصلنا إلى البيت والتقيتُ بها في الصالون الصغير بصحبة صديقتها الشقراء والشاب الشاحب، الذي أصبح معروفاً بأنه فارس بارع ما دام قد رفض ركوب تانكريد، مضيت أشكرها وأرد إليها وشاحها، وكنت بعد كل هذه الحوادث التي وقعت أشعر بضيق، وأتمنى أن أصعد إلى غرفتي لأتأمل على مهل، ولأرى المشاعر التي كانت تزدحم في نفسي بشيء من الوضوح. وقد احمرّ وجهي على عادتي حين مددت إليها الوشاح.

قال الشاب وهو يضحك:

- أحلف أنه كان يتمنى أن يحتفظ بالوشاح. إن المرء ليقرأ في عينيه أنه أسف لفراقه.

- تماماً.

كذلك أضافت الشقراء، وقد ظهرت في وجهها حسرة واضحة. وأخذت تهز رأسها. ولكنها لم تلبث أن سكنت حين نظرت إليها السيدة م... نظرة رصينة، لأنها لم تحب استمرار صاحبتها في الهزل.

وابتعدتُ مسرعاً، وأدركتني المرأة الشابة الشقراء في الغرفة المجاورة، فتناولت يدي بمودة ومحبة فقالت لي:

- كان في وسعك أن تحتفظ بالوشاح إذا شئت! كان يكفي أن تقول إنك أضعته، فينتهي الأمر! إنك لم تحسن التصرف يا سخيف.

ولطمتني بإصبعها على ذقني لطمة خفيفة. وضحكتْ بينما احمرَّ وجهي احمراراً شديداً. قالت:

- ألست صديقتك الآن؟ لقد انتهى الصراع بيننا... اتفقنا؟

فضحكت وضغطت أصابعها الصغيرة دون أن أجيب.

- ما بك؟ لماذا أنت شاحب؟ إنك ترتعد... فهل بك حمّى؟

- نعم... إنني أحس بأنني مريض قليلاً...

- مسكين أيها الصغير. هذه ثمرة المشاعر العنيفة. هيا ارقد في فراشك دون أن تنتظر العشاء، وغداً يصلح كل شيء. تعال!

قالت ذلك وقادتني إلى غرفتي وأحاطتني بما لا حصر له من أنواع الرعاية والعناية. ثم تركتني لأخلع ثيابي وهرعت تجيئني بقليل من الشاي، فلما رقدت حملت إليَّ غطاءً دافئاً. تأثرت كثيراً. ودهشت كثيراً من رعايتها هذه لعل هذا كان من نتائج ذلك النهار. ولكنني حين افترقنا عانقتها عناقاً شديداً كما يعانق المرء أحب أصدقائه إليه وأقربهم مودّة عنده. وقد كدت أبكي وأنا أشد نفسي إليها من فرط ازدحام المشاعر الأخيرة في قلبي المُضنى، فلما لاحظت صديقتي الجديدة انفعالي، انفعلت هي أيضاً، وهمست تقول وهي تنظر إليَّ نظرة رقيقة عذبة:

- أنت صبيٌّ طيّب جداً. لا تغضب مني بعد الآن، أرجوك... اتفقنا؟

والخلاصة أننا أصبحنا منذ ذلك الحين صديقين يحمل كل واحد منا لصاحبه أرقّ العاطفة.

استيقظت في ساعة مبكرة. ولكن الغرفة كانت منذ تلك الساعة المبكرة غارقة في شمس ساطعة. وقد نلت نصيبي من الراحة، واستردت قوتي وبأسي، كأن حمّى الأمس لم تكن، وشعرت بفرح لا يوصف، ووثبت من السرير. وحين تذكّرت حوادث الليلة البارحة تراءى لي أنني مستعد لأن أهب كل شيء في العالم في سبيل أن أعانق أو أن أقبّل في هذه اللحظة صديقتي الجديدة، الشقراء الحسناء، كما فعلت بالأمس، ولكن جميع من في المنزل كانوا لا يزالون نياماً. فارتديت ملابسي بسرعة، ونزلت إلى الحديقة، ومضيت من هناك إلى الغابة الصغيرة متسلِلاً عبر المواضع التي كانت فيها الخضرة أكثف ما تكون، وكان فيها عبق الأشجار أحفل بشذى الصنوبر، وكانت فيها أشعة الشمس تتلاعب مرحة فرحة سعيدة باختراق ظلال الأوراق هنا وهناك. لقد كان صباحاً جميلاً.

تسلّلت هكذا خلال الأشجار شيئاً بعد شيء، حتى وصلت أخيراً إلى الطرف الآخر من الغابة. إن نهر موسكوفا يجري على مسافة ما يقرب من مائة متر عند أسفل الجبل. ورأيت الحصّادين يقطعون الهشيم على الضفة المقابلة، فتلبثت أنظر إلى صفوف المناجل الحادّة التي تتلألأ ساطعةً عند كل حركة من حركات الحصَّادين، ثم

تختفي كأنها حيات من نار تتوارى بين الأعشاب. وكان الهشيم الذي يجد عند جذوره يتطاير أكداساً صغيرة كثيفة تصطف بعد ذلك أخاديد طويلة. لا أدري كم قضيت من الوقت في تأمل هذا المشهد حين ثبت إلى رشدي على حين فجأة، إذ أبصرت في الغابة الصغيرة، الواقعة على مسافة عشرين خطوة، عند الفسحة الممتدة بين الطريق الكبير والقصر، حصاناً يضرب الأرض بحوافره واقفاً في مكان نافد الصبر. ترى هل سمعت وصول الفارس أم إن الضجة دغدغت أذنيّ زمناً طويلاً دون أن تستطيع انتزاعي من استرسالي في الأحلام! لا أدري! ولكنني أعرف أنني شعرت عندئذ بحيرة واضطراب، فدخلت الغابة الصغيرة وسمعت أصواتاً صغيرة خافتة. حتى إذا أزحت في رفقٍ أغصان أواخر الشجيرات التي تحفّ بالفسحة رأيتني أثب متراجعاً إلى الوراء مصعوقاً من الدهشة. لقد رأيتُ ثوباً أبيض أعرفه، وسمعت صوتاً عذباً ترجَّع في قلبي كألحان الموسيقى. إنها السيدة م... كانت واقفةً قرب فارس يكلمها بسرعة من على صهوة جواده. وما كان أشد دهشتي حين عرفت في الفارس السيد ن... الذي تركناه في صباح أمسِ على حين غرة، والذي تحدّث عنه السيد م... لقد قالوا إنه سافر إلى مكان بعيد جداً، فلا غرابة إذا دُهشتُ أشدَّ الدهشة حين رأيته بيننا في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح منفرداً بالسيدة م...

كانت شديدة الاضطراب، قوية الانفعال كما لم أرها على هذه الحال من قبل، وكانت تلتمع على خدَّيها دموع وكان الشاب ممسكاً يدها يقبّلها مائلاً عليها. لقد وصلت في لحظة الوداع. كان يبدو عليها التعجّل. وأخيراً مدَّ الرجل إلى المرأة الشابة ظرفاً مختوماً سلَّه من جيبه، ثم حضنها بذراعه وقبَّلها قبلة طويلة دون أن ينزل إلى الأرض. وبعد لحظة، لكز حصانه لكزةً مفاجئة، فطار الحصان كالسهم. ظلّت السيدة م... تشيّعه بنظرها إلى أن غاب، ثم اتجهت نحو المنزل مطرقةً شاردة اللب حزينة، وثابت إلى رشدها بعد بضع خطوات، فأسرعت تزيح الأدغال وسارت في طريق الغابة.

تبعتها مضطرباً أشد الاضطراب مصعوقاً مما رأيت. كان قلبي يخفق خفقاناً، وكنت مشدوهاً، مذهولاً، وكنت على وجه الخصوص حزيناً حزناً رهيباً، ما زلت أتذكّر ذلك. إن ثوبها الأبيض يظهر لي من حين إلى حين خلال الخضرة. وكنت أمشي مسلوب الإرادة دون أن أحوِّل بصري رغم خوفي أن تكتشف وجودي. ووصلَت أخيراً إلى الممر الذي يفضي إلى الحديقة، وبعد لحظة سرتُ أنا في هذا الطريق أيضاً، فما كان أشد دهشتي حين لمحت على الرمل الأحمر الظرف المختوم فعرفته فوراً. إلتقطتُ الظرف. إنه لا يحمل أية كتابة. وهو ثقيل الوزن يبدو أنه يضم عدة أوراق من أوراق الرسائل.

ماذا يعني هذا الظرف؟ لا شك أنه يضمّ تعليل السِّر... لعله يقصّ ما كان السيد ن... لا يستطيع أن يأمل الإفصاح عنه أثناء لقائهما القصير. إن السيد ن... لم ينزل عن صهوة حصانه، فهل تُراه كان مستعجلاً، أم تُراء كان يخشى أن يُفتضح أمره في ساعة الوداع؟.. الله وحده يعلم ذلك...

وقفتَ ورميتَ الرسالة على الأرض ظاهرةَ للأبصار عسى أن تلاحظ السيدة م... فقدانها، فتعود أدراجها باحثةً عنها فتجدها. ولكنني بعد أن انتظرت بضع دقائق دون طائل عدت فتناولتُ الرسالة فوضعتها في جيبي، واستأنفت متابعة المرأة الشابة. وأدركتها في الحديقة عند الطريق الذي يحفّ به صفّان من الأشجار. كانت تمشي بخطى سريعة شاردة اللب خافضة العينين. وكنت لا أعرف ماذا يجب عليَّ أن أفعل. أأقترب منها وأمد إليها الرسالة؟ لو فعلت ذلك لكان برهاناً على أنني أعلم كل شيء، ولفضحت نفسي منذ أول كلمة. وكيف يمكن أن أنظر إليها عندئذٍ وكيف يمكن أن تنظر إليّ؟ لبثت أنتظر عسى أن تثوب إلى وعيها فتأخذ تبحث عن الرسالة الضائعة فتعود أدراجها.. إن في وسعي إذا حدث ذلك أن أسقط الرسالة في الطريق دون أن تلاحظ هي ذلك. ولكن لا، فها نحن نقترب من المنزل إلى حيث تُرى مقبلة...

وكان سكان الدار قد استيقظوا مبكرين في ذلك اليوم كأنما على قصد، لأنهم بعد إخفاق رحلة الأمس ينوون القيام بنزهة جديدة، وذلك ما كنت أجهله. إن الجميع يتهيأون للرحيل ويتناولون طعام الإفطار على الشرفة. فمن أجل أن لا يراني أحد مع السيدة م... تأخرت عشر دقائق، وقمت بجولةٍ في الحديقة فوصلت المنزل بعدها بمدة طويلة، فرأيتها قلقةً شاحبة الوجه، تذهب وتجيء على الشرفة مصالِبةً ذراعيها على صدرها، محاولة جهدها أن تتغلّب على خوفها الذي كان يلوح مع ذلك في عينيها ومشيتها وجميع حركاتها. نزلَتِ الدرجات عدة مرات متقدمةً في اتجاه الحديقة عدة خطوات، باحثةً بنظرة طائشة عن شيء على رمل الممرات وعلى الشرفة. لم يخامرني أي شك: لقد لاحظت ضياع الرسالة فظنت أنها سقطت منها في مكان قرب المنزل. نعم! لا ريب أن الأمر كذلك، لا ريب أنها واثقة من ذلك! وقد لاحظوا شحوبها وقلقها فكانوا يسألونها عن صمتها، وكانت مضطرة أن تمازح، وأن تضحك، وأن تتظاهر بالمرح، ثم هي تلقي من حين إلى حين نظرةً على زوجها الذي كان يتحدث عند آخر الشرفة مع سيدتين، فتنتابها رعدة ويجتاحها اضطراب، تماماً كما حدث لها مساء وصوله. وقفت بعيداً عن الآخرين، واضعاً يدي في جيبي ممسكاً بالظرف ضارعاً إلى القدر أن يلفت انتباه السيدة م... إليَّ... عسى أن أشجعها، أن أهدّئ روعها، أن أومئ إليها بنظرة مختلسة... ولكن حين نظرت إليّ مصادفةً ارتعشتُ وخفضت بصري.

لم يخطئ ظني في أنها معذَّبة. وما زلت أجهل سِرَّها إلا ما رأيته بنفسي وقصصته على القارئ. لعل روايتها تختلف عما قد يفترضه المرء لأول وهلة. لعل تلك القبلة كانت قبلة وداع. لعلّها كانت المكافأة الأخيرة الضعيفة على تضحية ارتضاها المضحّي في سبيل طمأنينتها وفي سبيل شرفها. لقد سافر ن... وتركها ربما إلى الأبد! وهذه الرسالة التي أمسكها بيدي: من ذا الذي يعلم ماذا تتضمن؟ كيف يمكن الحكم في الأمر؟ ومن يحقّ له أن يدين؟ لا شك مع ذلك أن انكشاف السر على حين فجأة يمكن أن يكون كارثة تنزل بها وصاعقة تصيب حياتها. ما زلت أرى وجهها في تلك اللحظة: يستحيل أن يتألم المرء ألماً أقسى من هذا الألم! أي عذاب يمكن أن يساوي عذابها وهي تتوقّع ما تتوقّع؟ أي عذاب يساوي عذابها وهي تحسّ وتعلم علم

اليقين وتنتظر انتظار المرء تنفيذ حكم الإعدام فيه لأنّ تلك الرسالة ستُلتقط وستفض ما دام الظرف خلواً من أية كتابة؟ إنها الآن تتصوّر نفسها بين القضاة الذي سيحكمون عليها. بعد قليل ستصبح وجوههم الضاحكة الملاطفة مهدّدة متوعدة لا ترحم! إن في وسعها أن تقرأ على هذه الوجوه السخرية القاسية والاحتقار البارد، ثم تقضي ليلةً لا آخر لها ولا رجاء فيها...

صحيح أنني كنت في ذلك الأوان لا أفهم هذه الأشياء كما أفهمها اليوم. ولم أكن أستطيع إلا أن أخمّن وأن أوجس وأن أقلق. ولكن أيًّا كان سرُّ هذه المرأة فإن اللحظات الأليمة التي شهدتها والتي لن أنساها ما حييت، تكفّر عن أشياء كثيرة، إذا كان ثمة ذنب يجب التكفير عنه حقاً.

وها هي ذي إشارة الرحيل تدوّي فرحة. الضيوف يذهبون ويجيئون ويتحرّكون مثرثرين ضاحكين. وبعد قليل ستفرغ الشرفة. وأعلنت السيدة م... أنها مريضة، ورفضت الذهاب مع الذاهبين. الحمد لله على أنهم كانوا جميعاً مستعجلين الرحيل، فلم يتسع وقت أحد منهم لمضايقتها بإلقاء الأسئلة وإسداء النصائح. قال لها زوجها بضع كلمات فأجابته مؤكدة أنه لا داعي إلى القلق، وأن صحتها لن تلبث أن تتحسّن، وأنها ستنزل إلى الحديقة... معي.

ونظرت إليَّ. هذه فرصة. احمرَّ وجهي فرحاً. وسرنا معاً.

أخذت تسير في نفس الطرق ونفس الممرات التي سارت فيها عند عودتها إلى المنزل في الصباح، وكانت تحاول أن تتذكر خط المسير الذي اتبعته، وكانت تنظر إلى أمام محدقةً لا تحوّل بصرها عن الأرض، ولا تخاطبني بكلمة، حتى لكأنها نسيت وجودي.

فلما بلغنا الموضع الذي إلتقطتُ فيه الظرف والذي ينتهي عنده الطريق، توقفتْ وقالت لي بصوت واهن شاحب، إنها تشعر بإعياء، إنها ستقفل راجعة إلى المنزل، ولكنها ما إن وصلت إلى باب السور حتى توقّفت جامدة تتأمّل، وطافت على شفتيها ابتسامة حزينة، ثم عادت أدراجها مهدودة القوى عازمة مذعنةً، ناسيةً أن تنبئني بما عقدت النية عليه، فلم أعرف ماذا أعمل، وقد مزّق القلق قلبي تمزيقاً.

ومضينا، بل قل إنني قدتها إلى المكان الذي سمعت فيه وقع حوافر الحصان، وما دار بينهما من حديث. وكان يوجد على مقربة من شجرة ضخمة من أشجار الدردار مقعد مقدود في صخرة كبيرة يلتف عليها اللبلاب وينبت حولها ياسمين الحقول وزهر النسرين (كانت هذه الغابة تكثر فيها الجسور الصغيرة والعرائش والمغاور وما إلى ذلك من مفاجآت)، جلست السيدة م... وألقت نظرة ذاهلة على المنظر الرائع الذي يمتد أمامنا، فتحت كتابها، وظلّت جامدة لا تقلب الصفحات ولا تقرأ حتى لتشبه أن تكون فاقدة وعيها. بلغت الساعة التاسعة والنصف، وفوق رأسَيْنا في سماء عميقة زرقاء كانت تسطع شمس رائعة كأنها منصهرة في لهيبها نفسه، والحصّادون قد ابتعدوا فلا تكاد تراهم الأبصار، وأخاديد لا نهاية لها من الهشيم المقطوع تتبعهم، وأبخرة عَطِرة تصل إلينا يحملها نسيم خفيف، ومن حولنا تترجَّع تلك الموسيقى التي لا تنقطع، موسيقى أولئك الذين «لا يزرعون ولا يحصدون»، وإنما هم طلقاء

كالهواء الذي تشقه أجنحتهم الفرحة. إن كل زهرة وكل عشبة كانت بعطائها أشذاءها جميعاً تعلن غبطتها وهناءتها لرب السماء. ونظرتُ إلى المرأة المسكينة التي كانت وحدها كالميتة وسط هذه الحياة الطافحة الفياضة. إن دمعتين كبيرتين نابعتين من قلب حزين تتلألآن على أهدابها. وكان في وسعي أن أنعش وأن أسعِدَ هذا القلب المسكين القلق الخائف، ولكنني لا أدري كيف أقوم بالخطوة الأولى. كنت أتألم وأحترق رغبة في مخاطبتها ومواجهتها، فكان خداي يشتعلان كلما هممت بذلك. وفجأة أشرقت في ذهني فكرة. لقد وجدت حيلةً فانتعشت نفسي.

قلت لها فجأة بلهجة تبلغ من الفرح أن السيدة م... رفعت رأسها نحوي وحدقت فيَّ:

- سأقطف لك باقة من أزهار... هل تريدين؟

- إذا شئت!

كذلك أجابت بصوت واهن مع ابتسامة ضعيفة، ثم أكبت على كتابها من جديد.

صحتُ وأنا أنطلق في البرية فرحاً:

- ذلك أنه سيقطعون العشب هنا فلن تبقى بعد ذلك أزهار!

وشرعت أعمل فرحاً، فما هي إلا برهة حتى كانت الباقة المتواضعة مهيَّأةً. لو فعلت ذلك في المنزل لكان فعلي في غير محله! ولكن ما أشد فرحي حين كنت أقطف الأزهار! كنت أنتزع زهر النسرين والياسمين البرّي وأنا في مكاني. وغير بعيد مني كان ثمة حقل قمح ناضج. كنت أعرف ذلك، فهرعت أقطف منه أزهاراً أخرى أضم إليها سنابل طويلة ثقيلة مذهَّبة. وعلى مقربة من حقل القمح عثرت على نوع آخر من الأزهار، فكانت باقتي تضخم. ووقعت بعد ذلك على زهرات زرق كأنها الجريسات شكلاً، وعلى قرنفلات من قرنفل الحقول، وجنيت كذلك عدداً من أزهار صفراء على حافة النهر، وحين قفلت راجعاً آخر الأمر فدخلت الغابة الصغيرة تناولت منها أوراقاً عريضة ساطعة الخضرة ألفُّ بها الأزهار. وهنالك عثرت مصادفةً على كشة كبيرة من أزهار البنفسج الصغير، وعلى مقربة من ذلك واتاني الحظ، فاهتديت إلى بنفسجات مدفونة في العشب فضحها شذاها الفواح، وكانت مغطاة بالندى. ربطت الباقة بعشب مفتول وأخفيت في داخلها الرسالة وغطيتها بالأزهار حتى لا تُرى.

وأحسست في طريق عودتي إلى السيدة م... أن الرسالة لا تزال ظاهرة فدفعتها إلى داخل الباقة حتى أصبح لا يُرى في الباقة شيء ومضيتُ إلى السيدة م... فقدمت إليها الباقة. كان وجهي ملتهباً كالنار، ووددت لو أدفنه في يدي وأهرب، لكنها وقد نسيت أني مضيت لآتيها بأزهار، مدّت يدها بغير شعور دون أن تنظر إلى الأزهار، ووضعتها على المقعد خافضةً عينيها وكأنها في غيبوبة.

كاد هذا الإخفاق أن يبكيني. «آمل على الأقل أن لا تنسى الأزهار!»، كذلك قلت لنفسي وأنا أتمدّد على العشب مسنداً رأسي إلى ذراعي اليمنى متظاهراً بالوسَن. ولكنني كنت أنظر إليها خلسة وأنتظر.

انقضت عشر دقائق، فكنت أرى السيدة م... تزداد شحوباً لحظة بعد لحظة، وفجأة وقع حادث مبارك:

إنها نحلة ذهبية كبيرة قادتها إلينا الريح من حسن حظي، فبعد أن دندنت فوق رأسي طارت نحو السيدة م... فهشّت السيدة م... عليها بيدها. ولكن النحلة ظلّت تتحرّش بها، فما كان من السيدة م... في آخر الأمر إلا أن تناولت باقتي وهزتها أمامها، فإذا بالرسالة تنزلق في هذه اللحظة من بين الأزهار، فتسقط على الكتاب المفتوح.

انتفضت خائفاً، ولبثت السيدة م... صمَّاء من الدهشة برهةً من الزمن، تنظر تارةً إلى الرسالة وتارة إلى الأزهار التي في يدها، وهي لا تصدّق عينيها. وفجأة احمرَّ وجهها ونظرت إليَّ. لكنني حين لمحت نظرتها أغمضت عينيَّ كما لو كنت نائماً. ما كان في وسعي أن أنظر إليها وجهاً لوجه في تلك اللحظة بحال من الأحوال! كان قلبي يخفق خفقان قطاة بين يدّيْ صبي من صبيان القرية أشعث الشعر لا أدري كم لبثت على هذه الحال قبل أن أجرؤ على فتح عيني.

فلما فتحتهما أخيراً رأيت السيدة م... تقرأ الرسالة محترقة الخدَّين ملتمعة العينين هادئة الوجه، ترتعش كل قسمة من قسماتها فرحاً. فقدّرت أن الرسالة تحمل إلى قلبها السعادة. لقد تبدَّد ألمها كالدخان، واعتراني أنا إحساس مؤلم، عذب قبض صدري، كان يشقّ على نفسي أن أخفي عواطفي.

لن أنسى في حياتي تلك اللحظة. ودوت أصوات تنادي من قريب على حين فجأة:

- السيدة م... ناتاليا... ناتاليا...

فأسرعت السيدة م... تنهض دون أن تجيب واقتربت مني ومالت عليَّ. أحسست نظرتها وارتعشت أهدابي، ولكنني سيطرت على نفسي فلم أفتح عينيَّ، وحاولت أن أتنفّس بمزيد من الهدوء، بينما كان قلبي يخفق خفقاناً شديداً، ولامست خدي زفرةٌ محرقة. لقد مالت عليَّ السيدة م... مزيداً من الميل كأنما لتمتحنني... وعلى إحدى يديَّ، على يدي التي كانت ممدودة فوق صدري، تساقطت قبلاتٌ ودموع.

- ناتاليا... ناتاليا... أين أنت؟

كذلك ارتفع الصياح قربنا.

- حا...لاً

كذلك قالت السيدة م... بصوتها الفضّي المحجب الذي كان يرتعش بسبب دموعها، والذي كان يبلغ من الخفوت أن أحداً غيري لم يسمعه.

وفضحني قلبي أخيراً، فأغرق الدم وجهي. وفي تلك اللحظة نفسها أحرقت شفتيَّ قبلة حارة عنيفة، فأطلقت صرخةً ضعيفة، وفتحتُ عينيَّ. كان هناك شيءٌ يمنعني من الرؤيا هو الوشاح الأرجواني الصغير مفروشاً على وجهي كأنما ليحميني من الشمس! وما هي إلا لحظة حتى كانت السيدة م... قد غابت فلا أسمع إلا وقع خطواتها وهي تبتعد، كنت وحيداً... أمسكت بالوشاح وأغرقته قُبلاً وقد اضطرم في نفسي فرح شديد. كنت كالمجنون... إنني أتنفس بصعوبة، مستنداً بيدي إلى العشب.

ورحت أنظر بعين ذاهلة محدّقا في الروابي التي تبرقشها الحقول أمامي، وفي النهر المتلوّي الذي يشق طريقه من بعيد يغمره الضياء بين الذرى والقرى، وفي الغابات الزرق التي لا تكاد تراها العين والتي تشبه أن تكون دخاناً عند حافة السماء المتوهّجة. وشيئاً فشيئاً هدّأ هذا الصمت العذب الذي توحي به طمأنينة المنظر الرائع، هدّأ اضطرابي وسكّن رَوْعي. أصبحت أتنفس بسهولة، ولكن نفسي كلّها كانت تفيض أسّى شجياً ممتعاً في آن واحد. كانت نفسي تهتز بشعور واضح ونبوءة بينة، وترتعش في انتظار خائف فرِح معاً وتنبض نبض جريح.. وانبجست من عينيَّ دموع تفيض عذوبة. ودفنت وجهي في يديَّ واستسلمت بلا مقاومة لأول اكتشاف من إلهام قلبي، واستسلمت للتنبؤ الغامض بطبيعتي... استسلمت لذلك كله وأنا أرتعش ارتعاش قشة في مهب الريح... لقد انتهت طفولتي الأولى في تلك اللحظة.

وحين رجعت إلى البيت بعد ساعتين، لم أجد فيه السيدة م... لقد سافرَت إلى موسكو مع زوجها على أثر حادث غير متوقّع، ثم لم أرها بعد ذلك أبداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

Notes

[←1]

بنديكت: هو عشيق بياتريس في ملهاة شكسبير «ضجة كبيرة في غير طائل»

[←2]

بارب بلو: اسم الشخصية الرئيسية في أوبرا تحمل الاسم نفسه من تأليف جاك أوفنباخ عام 1865.

[←3]

إيليا مورومتس: بطل من أبطال الملاحم الروس، أقوى فرسان سان فلاديمير قضى الثلاثين الأولى من سني عمره كسيحاً في قريته كاراتشاروفو، ثم شفته بمعجزة ملائكة متنكرة بمظهر حجّاج.

[←4]

الفارس النبيل «دولورج»: هو بطل قصيدة شيللر «القفاز»، وقد ترجمها إلى الروسية جوكوفسكي؛ والفارس «توجنبرج» بطل آخر في قصيدة لشيللر.